الـدَّوالُّ

وأثرها في إحكام بناء النص القرآنيِّ وتكامُلِه

كاظم الظواهري

١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

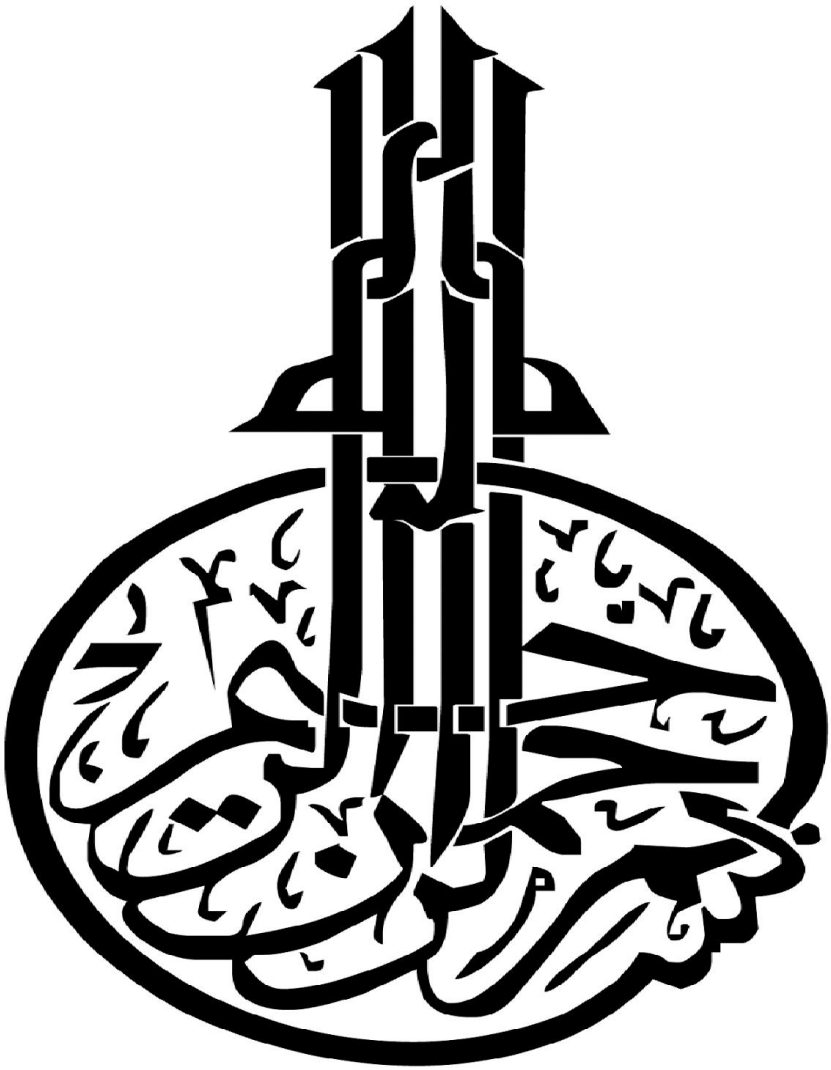

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ هود

الدوال وأثرها في إحكام بناء النص القرآني وتكامله

محمد كاظم حسن الظواهري

القسم: الأدب والنقد، الكلية: اللغة العربية بالمنوفية، الجامعة: الأزهر، المدينة: شبين الكوم، الدولة: جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني:mohammedalzawahry.lan@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يحاول هذا البحث أن يقدم مفهومًا محددًا للدوال هو الكلمات والتعبيرات والصور التي انفردت بها سورة ولم ترد في غيرها من السور، فقد مثَّلت ظاهرةً تثير التساؤل عن السر في تكرار هذا النمط في سورة دون غيرها، وبعد التوفر على تتبعها وتعمق درسها تبين أنها دوال رابطة بين موضوعات السورة لتحكم نظمها بمعونة غيرها من الدوال التي قد توجد في غيرها من السور، لتخرج السورة كالصورة التي تتوزع في أرجائها مفردات وألوان متعددة متناسقة متآزرة جميعًا لتخرج عملا فنيا بديعًا أو البناء الذي يتكون من طبقات لها مداخل ومخارج ودرج وردهات وأبهاء وغرف ومرافق، لكل منها وظيفتها التي صممت لتناسبها وتخرج في النهاية معمارًا متناسقًا من النفع والجمال. وفي كل الأحوال لا مفر من وجود الروابط التي تربط بين هذه الأجزاء. وهذا ما تنهض به الدوال في القرآن الكريم. وقد تكون البحث من محاور خمسة، هي: الدوال الرابطة في القرآن الكريم، جداول فرائد الدوال من الألفاظ والتراكيب، نماذج مختارة من فرائد الدوال، من دوال سورة مريم، روابط القسم الأول، روابط القسم الثاني، ثم كانت الخاتمة. وقد التزم الباحث المنهج الوصفي القائم على التدبر والتحليل والتذوق المستعين بكلام السلف الصالح من المفسرين والبلاغيين.

الكلمات المفتاحية: الدوال–الإحكام– البناء – النص– القرآن.

Functions and their impact on the tightness and integration of the Qur'anic text

Muhammad Kazem Hassan al-Zawahiri
Department: Literature and Criticism, Faculty: Arabic Language in Menoufia, University: Al-Azhar, City: Shebin El-Kom, State: Arab Republic of Egypt.

Research Summary: This research attempts to present a specific concept of the lexical patterns, which are the words, expressions, and images that are unique to and existed in a Quranic surah but are not found in other surahs. They represent a phenomenon raises a question regarding the secret behind repeating such style within one surah but not in the others. After following and profound study of them, it is stated that they are conjunctional lexical patterns linking the subjects of the Surah to each other to control their systems with the help of other lexical forms that may be found in other surahs, so that the surah emerges as a an image throughout its corners multiple vocabulary and types are distributed in coordinated and harmonious manner all supporting each other to produce a wonderful kind of art, or as a building that consists of layers with entrances, exits, stairs, hallways, halls, rooms and facilities, for each of them a function that is designed to fit each one of them and finally produce a harmonious construction of utility and beauty.

In all cases, it is inevitable that there are linking words among these parts. With which the lexical patterns and meanings are promoted in the Holy Qur'an. This research consisted of five topics, namely: the conjunctional lexical patterns in the Holy Qur'an, the tables of the unique lexical patterns of words and structures, selected models of them, the lexical meanings and patterns of Surat Maryam, the linking words of the first section, the linking words of the second section, and then the conclusion. The researcher adhered to the descriptive approach based on reflection, analysis and taste, using the words of the righteous predecessors from the Quranic Commentators and rhetoricians.

Keywords: Lexical meanings and patterns - precision - construction - text - the Qur'an

قبل البدء:

هذه الوريقات ليست سوى فصل من باب من محور من محاور مشروع دراسة شرعت في جمع مادتها قبل ما يزيد على ثلاثين عاما، وهذا المشروع مرَّ بمراحل عدة من النشاط والفتور وغلبة صروف الدهر على صاحبه ، ولكن الأمل لم ينقطع قط عن التوق إلى مواصلة العمل فيه إلى ما شاء الله أن يصير إليه، وكان المحور الوحيد الذي تمكنت من إخراجه إلى النور هو "**بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**"، وطبع قبل ثلاثين عاما، على غير تمام رضا نفسي عن منهجه الذي أعجلتني المقادر على اصطناعه، وما زال الأمل يراودني في إمكان إعادة النظر فيه، مما جعلني أرفض بشدة كل طلب لإعادة طبعه على حاله بعد نفاد طبعته الأولى بعد شهور من صدورها، وذلك حتى يتسنى لي العمل على إقامته من جديد على منهج مرضي، أو دمجه في موضعه الذي كنت أعددته ليكون فيه ضمن المشروع المأمول.

ومنذ ذلك التاريخ لا أفتر عن معالجة النظر في المشروع الذي فرغت من جمع مادته، أو هكذا أظن، والظن أكذب الحديث، وكذا تسجيل عجالات ملخصة لبعض أفكار محاوره، ولكن الوقت يسرقني، والأجل يسابقني ، والأمل لا يفارقني.

ولما اتصل بي الزميل أ.د. صبري فوزي أبو حسين راغبا إليّ في كتابة بحث أو مقال ينشر في العدد الأول من حولية كلية الدراسات الإسلامية الفتية بمدينة السادات، امتنعت بشدة عن الوعد بتقديم شيء، لا لعدم وجود، ولكن مخافة الخُلف؛ لما أعلمه من سيطرة شواغل الدنيا على وقتي الذي لا يخرج مما يسمح به القَدَر عن الوفاء بمتطلبات العمل العلمي بالجامعة، وما أقل ذلك الوقت، غير أن التوق القديم والرغبة في الاستجابة

لما طلب منى الوعد به ألحّا عليّ لليالٍ، فجعلت أخاطب النفس مُتلوِّما: إلى متى هذا الاستسلام والقعود عن تقديم ما وعدت به ربك! هل تدري كم بقي من عمرك حتى تسوف هذا التسويف وتستسلم هذا الاستسلام ؟ لماذا لا تنتهز الفرصة للتحرك ولو في سبيل نقل فكرة من الأفكار ليطلع عليها سدنة العلم ورهبان الدراسات القرآنية ويقوموا بها، ويحققوا فيها ما عجزتَ عن تحقيقه؟. وعندها قمت إلى خزائن ملفاتي وما طرح منها فوق مكتبي وحواليه، وفوجئت بما لا قدرة لي على اختيار شيء منه يصلح لمقالة أو بحث تضمه دفتا هذه الحولية ، وعاودني اليأس أياما، ثم عدت من جديد لانتخال بعض ما في رأسي من الأفكار، وأنا على طريق سفر، وفجأة خرجت فكرة "**الروابط**" من بين عشرات الأفكار، ومادتها فيما أحسب شبه جاهزة عندي، ولكنها من الاتساع بمكان؛ وبعد تفكر قررت أن أنتقي منها نماذج لها دلالتها لتقديمها لشداة العلم الشريف، فانتقيت منها "**فرائد الروابط**"، أي الكلمات والتعبيرات والصور التي انفردت بها سورة ولم ترد في غيرها من السور فمثلت ظاهرة تثير التساؤل عن السر في تكرار هذا النمط في سورة دون غيرها ، وبعد التوفر على تتبعها وتعمق درسها تبين أنها دوالٌ (جمع دالّة) رابطة بين موضوعات السورة لتُحْكِم نظمها بمعونة غيرها من الدوالّ التي قد توجد في غيرها من السُور؛ لتخرج السورة كالصورة التي تتوزع في أرجائها مفردات وألوان متعددة متناسقة تتآزر جميعا لتخرج عملا فنيا بديعا، أو البناء الذي يتكون من طبقات لها مداخل ومخارج ودَرَج وردهات وأبهاء وغرف ومَرافِق لكل منها وظيفتها التي صممت لتناسبها، وتخرج في النهاية معمارا متناسقا فيه النفع والجمال (**والعمارة بالمناسبة من الفنون السبعة في علم الجمال**)، وفي كل الأحوال لا مفر من وجود الروابط التي تربط بين

هذه الأجزاء، والدوال من هذه الروابط بما لها من خصوصية آمل أن تجليها هذه الصفحات.

والعمل الذي أسأل الله تعالى المعونة على إتمامه هو أيضا له مفردات لو أنجزت وتم جمعها وتأليفها نرجو أن تمثل منظومة تقدم لنا تصورا جديدا لطبيعة القرآن الكريم، هذا التصور الذي بدأت معالمه في التشكل في مخيلتي منذ سنين، ومع مداومة النظر بدأ القرآن يظهر بين ناظريّ في ثوب مختلف، وإدراك مختلف لمعجزته الكبرى التي ما زالت تحار فيها العقول، هذا التصور هو ما أسأل الله المعونة على التوفيق في إخراجه إلى الوجود لعله يفتح أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا لتهتدي بهدى القرآن وتستضيء بأنواره؛ فإذا تمكنت من إخراجها فبها ونعمت، وإن لم أتمكن أكون بهذه النماذج قد فتحت طاقة لينفذ منها بصيص من النور يستهدي به غيري من الموفقين لإخراجها، فاستعنت بالله وقررت التفرغ لها أياما لتدرك الحولية الفتية، وبالله التوفيق.

كاظم الظواهري

ملحظ مهم:

اضطررت لحذف بعض النماذج من هذه النشرة لتناسب طبيعة الحولية التي تنشر فيها، ولعلها تكون ذخرا لما أتمنى أن يمكنني الله من نشره تاما فيما بعد إن شاء الله.

الدوالُّ الرابطة في القرآن الكريم

في القرآن الكريم العديد من الدوالِّ الرابطة بين الموضوعات التي ترد في السورة الواحدة توجيها للمدارك إلى العلاقات بين جزئيات الموضوع تحقيقا لمقاصد التنزيل، و بها يمكن دحض التشكيك القائل بأن القرآن لا تربط موضوعاته رابطة وأنه مفكك **(في أقوال بعض المستشرقين وأتباعهم من المستغربين)**.

والدوالُّ أبنية أسلوبية تنتشر بنظام دقيق **مقصود** في أرجاء النص الأدبي تؤدي وظائف عدة في توجيه المتلقي لإدراك خط سير الأفكار في تسلسلها المنطقي المؤدي لتحقيق تصور متكامل لبناء النص والهدف الذي يرمي إليه .

وهذه الدوالُّ متنوعة من لفظية وأسلوبية تعبيرية وتصويرية ، ثم معنوية، وقد تكون **فرائد** من المفردات، و**فرائد** من التراكيب (الجمل وأشباه الجمل)، و**فرائد** من الصور، و**فرائد** من المعاني، وحدُّ **الفرائد** أنها **تتكرر** في مواضع من سورة واحدة أقلها مرة واحدة في موضعين، وأنها لا توجد في غيرها، وربما يعفى عن موضع واحد في سورة غيرها لأنه لا ينال من أثر التفرد في كثير.

وأما ما يتكرر في السورة ويوجد في غيرها من السور فإنه وإن كان يفتقد شرط التفرد فبحسب أثره في تماسك أجزاء النص وإحكام بناء السورة، وهذا كثير جدا في القرآن، ولهذا لا يمكن إغفال دوره، لاسيما فيما يرد بكثرة مفرطة في سورة ولا يوجد في غيرها بمثل ذلك، نحو اسم "**الرحمن**" الذي ورد مرات كثيرة في سورة مريم، وكلمة "**قرآن**" التي لم ترد في سورة من السور بمثل كثافة ذكرها في سورة الإسراء، والفعل "**قُل**" في الأنعام، وذلك يبرز بروزا شديد الوضوح في سورة الناس، دون أن ينال منه كثرة ورود وصف

"**الناس**" في القرآن الكريم، فمثل هذه المفردات، وإن لم تكن فرائد، لها في سورتها دلالة عميقة لمن يتتبعها ، وسيمر بنا هنا بعض ذلك، ومنها أيضا ما يوجد في سورة بكثافة ظاهرة وربما ورد في غيرها، في موضع من سورة أو اثنتين فهذا كالفرائد، وسنرى فيما بعد أن هذا وذاك يكاد يتساوى مع الفرائد في هذا الدور لولا أن الفرائد لها مذاق خاص في دلالتها على ترابط بناء سورة بعينها إذا توافرت فيها .

ومن ذلك الدوالُّ المركبة في الفرائد التي لا نظير لها في غير سورتها، وأشهرها سورة الرحمن، ومنها ما يرد في غيرها بقلة كما في المرسلات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾، والطور والمطففين.

ومن الدوال ما يبنى على بنية المفارقة أو المقابلة، أو يفضي إليها مع اتحاد اللفظ واختلاف المدلول، أو بالمطابقة، وهو بعض ما أطلقنا عليه "**البنية التقابلية في القرآن الكريم**، فيما يمر بنا نماذج منه في هذه الدراسة.

وفي أساليب الحوار والجدل والقصة تدور ألفاظ بعينها وتعبيرات بكثرة ملحوظة بسبب كونها محور الفكرة أو من مكوناتها، ثم تختفي من بقية السورة بعد انقضاء دورها فهذه ليست من الفرائد في شيء، وربما لا يكون لها دور في تمام ترابط بناء السورة غير ما قامت به في موضعها، وفيها محاذير تؤخذ في الاعتبار، ومثال ذلك أن "الشِّرْك" ليس محورا من محاور سورة البقرة، فكان قليلا وروده فيها قلة ظاهرة، وفي مواضع متفرقة، أما في الأنعام فهو يكاد يستولي عليها من أقطارها؛ فلا يكون هذا كذاك، ولأن الحديث عن الشرك منتشر في الكتاب مكيه ومدنيه ليس من الوارد أن يُعَدَّ من فرائد الدَّوالِّ، ويبقى مع ذلك دالَّةً لها وزنها في سورة الأنعام المكية، وأيضا سورة التوبة المدنية ، وعلى هذا القياسُ.

ولا يتوقف دور الدوال عند الربط بين أطراف السورة بل إنه يمكن أن يصبح من علاماتها التي تمنحها طابعها **(ولكل سورة طابعها)** الذي يميزها من غيرها بحيث إذا مر على الأذن تجد السامع يقول: هذه سورة كذا ، وكثير من العوام فضلا عن الخاصة إذا سمع آية فيها ذكر "القميص" أو "الرؤيا" أو "العير" أو "البعير" أو "العزيز" فإنه يدرك أنها سورة يوسف، والذي يسمع: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" يقول: الرحمن، والذي يسمع لفظ "ثلة" يقول: الواقعة، لأن هذه الألفاظ لم ترد في غيرها.

والذي يتصدى لتمحيص هذه الدوالِّ والبحث في العلاقات التي بينها ودورها في بناء السورة قد تواجهه صعوبات في التحقق من الأثر الذي حققه وجودها في القرآن، وفي تقديمه للمتلقين بأسلوب مقنع يهتدي إليه بالتأني في الكشف عن الظاهرة، ووضع عناصرها وأدلة وجودها نصب أعينهم بجهد مضاعف، لاسيما أن ما سبق به المتقدمون في شأنها لا يكاد يذكر، لا لشيء إلا أنهم شغلوا عنها بما رأوه الأولى والأجدى من مسائل الدين وقضاياه، ولعل بعضهم فطن إليها فمر بها عابرا دون أن يأبه بها، ولا يخفى أن أكثر المفسرين وعلماء القرآنيات درجوا في ضوء المحاذير والضوابط المتعارف عليها بينهم على تناول النص القرآني في ضوء ما أنار السابقون لهم من الطريق، وهو ما اصطلحوا على وصفه بأنه منهج التفسير بالمأثور، وهم جميعا على اختلاف توجهاتهم من عقدية وشرعية وتاريخية ولغوية وبيانية وعلمية يقولون : قال فلان وقال فلان!، طيِّب، وماذا قال القرآن؟ ولعل هذا السؤال خطر لبعض منهم فاستراح إلى تفسير القرآن بالقرآن في ظل صحيح السُّنَّةِ، وهذا جيد لولا أنهم لم يتمكنوا من الالتزام به التزاما مطلقا لِمَا وجدوه في طريقهم من عقبات حالت دون الاستمرار فيه إلى الغاية ، فجاء جيل تال لهم أعمل العقل بإخلاص هادف إلى مزيد النفع

فـي خدمـة كتـاب الله والانتفـاع بـه فـي آن ، فكـان لهـم شـأن ونفـع كبيـر وتوجيهات يشار إليها بالبنان ، وقد واجهتني هذه المسألة منذ وقت قريب وأنـا أكتـب رسـالة طُلِـب إلـيّ بإلحـاح كتابتهـا فـي شـأن قضـية العلاقـات المشبوهة التي يُراد تصديرها إلينا ، بل فرضها فرضا ، فرأيت المتقدمين من السلف الصالح قد اتجهوا في أمر نص مهم جدا لدرجة تجعله بمثابة الدليل القاطع على تحريمها ؛ فاتجهوا إلى القول بأنه قُصد به أمر آخر ، هو مثله في السوء ، ولكن توجيه تأويل النص إليه يحرم القضية الأخرى من دليل حُرمتها ، لاسيما أن هناك من العابثين من جهر على الفضائيات بأن الإسلام لم يحرِّم هذه الفاحشة ، وكان التأويل المنطقي العقلي الموافق لمنطوق النص بلا التواءات ولا افتراضات قد صدع به عالم كبير من جيل شيخ المفسرين ابن جرير الطبري هو أبو مسلم الأصفهاني (ت٣٢٢) ، وقدم أدلته ، ومال إليه بعض من تلاه ، فشجعني هذا وما ذكره علماء الأصول من **أن استنباط تأويل جديد في الآية لم يذكره المتقدمون جائز**، فما كان مني إلا أن صدَّرتُ الرسالة بتأويله وأقررته عليه واحتشدت له بكل ما وسعني من دليل هداني إليه الله ، ابتغاء مرضاته في الذَّبِّ عن حرمات الله وفطرته التي فطر الناس عليها .

والذي يهمنا في هذا المجال أن نضع نصب أعيننا بكل التقدير والتبجيل والاعتراف بالفضل والريادة كل ما انتهى إليه العلماء، ونفيد منه ما تحوجنا الضرورة إليه شريطة ألا نجعله غُلا في الرقاب أو قيدا على العقول، ولا ندعي أننا قادرون على أن نقول لهم خلوا بيننا وبين كتابنا، ولا ندعي أيضا أننا سوف نجعل كل مقالة لهم دستورا لنا، إلا ما أفاد فائدة أو درأ مفسدة، دون تعارض مع ما يتجلى لنا من حقائق الكتاب العزيز، لاسيما أن ما نحن بصدده مسائل وقضايا قلَّ من تعرض لها بالدرس والتمحيص؛

فقليل ما هم من تعرضوا للنص القرآني من جهة البنية الكلية للسورة ، كما نرى فيما نعرضه في هذا المجال.

ولأن هذا الموضوع يطول فيه البحث ويكاد لا ينقضي ؛ نكتفي بتقديم نماذج مما تحت يدنا منه، بادئين **بالدالة اللفظية**، لا أعني كل ضروبها أيضا، بل نمط واحد منها فقط، هو تلك **الفرائد من الدوالِّ** التي توجد في السورة ولا توجد في غيرها من القرآن، وإلى هنا ربما لا يبدو الأمر غريبا أو لافتا للنظر، بل ربما يبدو أمراً لا يستحق التوقف عنده وتخصيصه بالدرس، ولعل هذا كان من أسباب انصراف جلة السابقين عن تتبعه، ولكنا إذا عرفنا أن هذا الضرب من الدوالِّ التي لا توجد إلا في سورة واحدة ولا توجد في غيرها نجد تكرارها في مواضع من السورة يلقي بظلاله على مخيلة المتلقي داعيا إياه للربط بين مواضع ذكرها، وكأنه يقرع مسامعه منبها إلى رابطة وثيقة بين الموضعين، أو المواضع التي وردت فيها، بل يسهم في طبع السورة بطابع خاص يميزها من غيرها، وهكذا أكثر القرآن وأكثر ما يتجلى هذا في الربط بين القصص وموضوع السور التي يرد فيها كما سنرى.

وقد سبق أن قدمت مثالا لهذا أو أكثر في مؤلف سابق لبيان أثر الدوالِّ في استنباط العلاقات بين أطراف الأحداث والأفكار، والتوجيه لاستنباط ما وراء ظاهر النص من معانٍ في العمل الأدبي، ومن بين هذه النماذج كلمة "استفز" (مادة فزز) **التي وردت في سورة الإسراء ثلاث مرات ولم ترد في غيرها**، وها هي ذي:

﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾، و﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ ﴾،

و ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾. فأول هذه المواضع جاء خطابا من الله لإبليس في موقفه الرافض للأمر الإلهي بالسجود لآدم، وطلبه الإمهال، مع توعده لآدم وذريته، وهو أول مواقف الشر والجحود في بدء الخليقة كما هو معلوم .

والثاني: خطاب من الله للرسول –صلى الله عليه وسلم– يحذره ويذكره بما أراد كفار مكة فعله معه قبل الهجرة ، وأنهم لو تمكنوا من ذلك لحل عليهم العقاب ووقع بهم العذاب.

والثالث: تذكير بما أراد فرعون إيقاعه ببني إسرائيل، وما حل به من الهلاك بسبب ذلك.

وهذه المواقف الثلاثة، وإن كانت أحداثها متباعدة زمانا ومختلفة في ظاهر وقائعها، هي في الحقيقة أطراف فكرة واحدة يقع تحتها موقفان يستدل بهما على ما يحل من العقاب بمن يعصي الله ويحادُّه، وهما إبليس وفرعون، ويقاس عليهما الثالث، وهو الذي يوجَّه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– مبينا له ومثبتا أن هؤلاء الكفرة لم يكونوا ليفلتوا من عقاب الله لو أنهم فعلوا أو حاولوا فعل ما عزموا عليه من إيذاء الرسول، أسوة بما وقع لمن ارتكب ما سبق من مواقف ، فجاءت كلمة "الاستفزاز" للربط بين المواقف الثلاثة، وتعزيزا لهذه المهمة أو الوظيفة قضى الله ألا تتكرر في أي موضع آخر من القرآن الكريم، وهذا لا يعني أن كل رابط يشترط فيه هذا الشرط، وإنما هذا يقع بمثابة ترشيح وترسيخ للمراد في مواقف محددة ، وسوف يرد في قابلٍ بعضُ ذلك، إن شاء الله.

وفي سورة الإسراء كما في غيرها من السور شيء كثير من هذه الروابط.

وفي سورة يونس دالٌّ فريد في صيغته جاء في موضعين منها هما:

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ و﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ هذا التركيب البليغ لصيغة الاستفهام المقصود به التحسير والتأنيب في موقفين متوازيين أحدهما عامٌّ مسلط على كل مكذب يموت على الكفر، والآخر يصف واقعة تاريخية معروفة لمشهد غرق فرعون ، وفي الحالتين كلتيهما يجهر المكذب بالإيمان بما كذب به من قبل ، فيقال له على سبيل التوبيخ و التقريع: آلآن تؤمن بعد فوات الأوان واستحالة قبول التوبة!؟ .

ولأن هذا التعبير لم يرد في القرآن كله نظير له تتجلى تلك الخصوصية التي يتحلى بها في هذه السورة ؛ لتحدث ربطا بين المشهدين والقصتين بهذا الرابط الذي يقرع أذن السامع عند سماع المدِّ الطويل الواقع في السؤال الموجه لفرعون ليستحضر نظيره الذي سبق في مشهد المكذب الذي مر قبل أربعين آية ؛ فيحدث فيه الأثر المطلوب المحذر من الوقوع فيما وقع فيه فرعون إن هو انحاز إلى فئة المكذبين المعاندين إلى النهاية التي ينقطع عندها العذر ولا ينفع ندم ولا تقبل توبة، وهذا ما وقع لي منذ سنين متطاولة وأنا أصلي خلف إمام أبدع في قراءة هذه السورة وأطال المد في "ءَآلْـَٰٔنَ" حتى نفذت إلى أعمق أعماق القلب والوجدان وما زال صداها يتردد في مسامعي إلى الآن.

هذان مثالان قدمتهما في مؤلف سابق ، كما أشرت من قبل.

****

وقبل المضي في عرض مزيد من النماذج الموضحة لطبيعة هذه الظاهرة ، ومدى انتشارها وأثرها في بيان وحدة بناء السورة وتكامله نسوق

مسرداً لنماذج مما توافر تحت اليد من هذه المفردات ، وقد اقتصرنا فيه على ما ينطبق عليه شرط الفرائد فقط من المفردات والتراكيب :

جدول فرائد الدوال من الألفاظ والتراكيب

السورة	مفردات	مواضع	تراكيب	مواضع
البقرة	رفث	١٨٧ – ١٩٧	ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون	٦٢ – ١١٢ – ٢٦٢ – ٢٧٤ – ٢٧٧
	طاقة	١٨٤ – ٢٤٩ – ٢٨٦	حذر الموت	١٩ – ٢٤٣
			فإن لم تفعلوا	٢٤ – ٢٧٩
آل عمران	قرح	١٤٠ – ١٧٢		
النساء	نشوز	٣٤ – ١٢٨	ومن أصدق من الله	٨٧ – ١٢٢
	ميل	٢٧ – ١٢٨	فقد ضل ضلالا بعيدا	٦٠ – ١١٦ – ١٣٦ – ١٦٧
	نقيرا	٥٣ – ١٢٤	ولا يظلمون/ تظلمون فتيلا	٤٩ – ٧٧
	كفوا	٧٧ – ٩١	نصيبا مفروضا	٧ – ١١٨
	غنيا	٦ – ١٣١ – ١٣٥		
	فقيرا	٦ – ١٣٥		
	مستضعفين	٧٥ – ٩٧ – ٩٨ – ١٢٧	إن الله لا يغفر أن يشرك به	٤٨ – ١١٦
	يستفتونك	١٢٧ – ١٧٦	سلطانا مبينا	٩١ – ١٤٤ – ١٥٣
			فلن تجد له سبيلا	٨٨ – ١٤٣

المائدة	سحت	٤٢ – ٦٢ – ٦٣	فلا تأس	٢٦ – ٦٨
	شنآن	٢ – ٨		
ت : المائدة	القلائد	٢ – ٩٧		
	الأزلام	٣ – ٩٠		
الأنعام	صدف	٤٦ – ١٥٧	فذرهم وما يفترون	١١٢ – ١٣٧
	قرطاس	٧ – ٩١	وهو القاهر فوق عباده	١٨ – ٦١
	أرأيتكم	٤٠ – ٤٧	ثمره إذا أثمر	٩٩ – ١٤١
الأعراف	تكبر	١٣ – ١٤٦		
	ينالهم/سينالهم	٣٧ – ٤٩ – ١٥٢		
	أتهلكنا	١٥٥ – ١٧٣		
الأنفال			إن شر الدواب عند الله	٢٢ – ٥٥
التوبة	وهموا	١٣ – ٧٤	ولا تعجبك أموالهم...	٥٥ – ٨٥
	قعود	٥ – ٤٦ – ٨٣	...وتزهق أنفسهم وهم كافرون	٥٥ – ٨٥
			أنزلت سورة	٨٦ – (٦٤) – ١٢٤ – ١٢٧
يونس	ءَآلْـَٔـٰنَ	٥١ – ٩١		
هود	رشيد	٧٨ – ٨٧ – ٩٧	واتبعوا ..وأتبعوا	٦٠/٥٩ ، ٩٩/٩٧
			قال يا قوم ...إن كنت على بينة من ربي	٢٨ – ٦٣ – ٨٨
			فلا تك في مرية	١٧ – ١٠٩
يوسف	استيأس	٨٠ – ١١٠	قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل	١٨ – ٨٣

	قميص	١٨ ـ ٢٥ : ٢٨ - ٩٣	قلن حاش لله	٣١ — ٥١
	بضاعة	١٩ — ٦٢ —	قال معاذ الله	٢٣ — ٧٩
ت يوسف	بضاعة	٦٥ - ٨٨		
	عير	٦٥ — ٧٠ — ٧٢ — ٨٢ — ٩٤		
	بعير	٦٥ — ٧٢		
الرعد	معقب	١١ — ٤١		
	عقبى	٢٢ — ٢٤ — ٣٥ - ٤٢	عقبى الدار	٢٢ — ٢٤ - ٤٢
إبراهيم			وبرزوا لله	٢١ — ٤٨
النحل			تصف ألسنة	٦٢ — ١١٦
الإسراء	يرحمكم	٨ - ٥٤	أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَٰتًا ...	٤٩ — ٩٨
	عنق	١٣ — ٢٩	...أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا	٤٩ — ٩٨
	ملوما	٢٩ - ٣٩		
	تفضيلا	٢١ — ٧٠	فإذا جاء وعد الآخرة	٧ - ١٠٤
	استفز	٦٤ — ٧٦ - ١٠٣	علوا كبيرا	٤ — ٤٣
الكهف	غادر	٤٧ — ٤٩	تحط به خبرا/أحطنا خبرا	٦٨ — ٩١
	مرفقا/مرتفقا	١٦ — ٢٩ - ٣١		

	تسطع	٩٢ – ٩٧		
	نسيت	٢٤ – ٦٣ – ٧٣		
مريم	عصيا	١٤ – ٤٤	اذكر في الكتاب	١٦ - ٤١ – ٥١ – ٥٤ – ٥٦
ت مريم	بَغِيّا	٢٠ - ٢٨		
	هين	٩ - ٢١	قال كذلك قال ربك هو علي هين	٩ – ٢١
	تقيا/ متقين	١٣ – ١٨ – ٦٣ – ٨٥ – ٩٧	بكرة وعشيا	١١ - ٦٢
	مقضيا	٢١ – ٧١	اتخذ عند الرحمن عهدا	٧٨ - ٨٧
	عتيا	٨ - ٦٩		
	سميا	٧ - ٦٥		
	شقيا	٤ – ٣٢ – ٤٨		
	جثيا	٦٨ - ٧٢		
طه	شقي	٢ – ١١٧ - ١٢٣	إن في ذلك لآيات لأولي النهى	٥٤ – ١٢٨
	أمثل/مُثلى	٦٣ - ١٠٤	نسف نسفا	٩٧ - ١٠٥
	العلى	٤ - ٧٥		
الأنبياء			فاستجبنا له	٧٦ – ٨٤ – ٨٨ – ٩٠
			وكنا ... عالِمين	٥١ - ٨١
			الأرض التي باركنا فيها	٧١ - ٨١
الحج			فليمدد بسبب ...ثم ليقطع فلينظر ...ثم ليقضوا ..وليوفوا ..وليطوفوا	١٥ – ٢٩

			على ما رزقهم من بهيمة الأنعام	٢٨ – ٣٤
			إن الله لقوي عزيز	٤٠ — ٧٤
المؤمنون			آياتي تتلى عليكم فكنتم	٦٦ — ١٠٥
النور	عورات	٣١ – ٥٨		
الفرقان	نشورا	٣ — ٤٠ – ٤٧	حجرا محجورا	٢٢ – ٥٣
الشعراء	الغاوون	٩٤ – ٢٢٤	وما كان أكثرهم	٨ — ٦٧ — ١٠٣ — ١٢١ — ١٣٩ —
			مؤمنين	١٥٨ — ١٧٤ — ١٩٠
			وإن ربك لهو العزيز الرحيم	٩ — ٦٨ — ١٠٤ — ١٢٢ — ١٤٠ — ١٥٩ — ١٧٥ — ١٩١
			وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين	١٠٩ — ١٢٧ — ١٤٥ — ١٦٤ — ١٨٠
الروم			فأقم وجهك للدين القيم	٣٠ — ٤٣
الأحزاب			ولا تطع الكافرين والمنافقين	١ – ٤٨
ت : الأحزاب			سراحا جميلا	٢٨ – ٤٩
سبأ			مزقتم/مزقناهم كل ممزق	٧ – ١٩
يس			ولا هم ينقَذون	٢٣ — ٤٣
			أفلا يشكرون	٣٥ — ٧٣

الصافات	الصـــافات / الصافون	١ – ١٦٥	وتركنا عليه/عليهما في الآخرين	٧٨ – ١٠٨ – (١١٩) – ١٢٩
	سقيم	٨٩ – ١٤٥		
	فاستفتهم	١١ – ١٤٩		
الدخان	فارتقب	١٠ – ٥٩		
الأحقاف			ويوم يعرض الذين كفروا على النار	٢٠ – ٣٤
ق	عتيد	١٨ – ٢٣		
النجم	المنتهى	١٤ – ٤٢		
القمر	مستمر	٢ – ١٩	ضلال وسعر	٢٤ – ٤٧
	مزدجـــــر/ ازدجر	٤ – ٩	ولقد يسرنا القرآن للذكر	١٧ – ٢٢ – ٣٢ – ٤٠ –
	مقتدر	٤٢ – ٥٥	فهل من مدكر	١٥ – ١٧ – ٢٢ – ٣٢ – ٤٠ – ٥١
الرحمن			فبأي آلاء ربكما تكذبان	٣١ موضعا
			ربـــــك ذو/ذي الجلال والإكرام	٢٧ – ٧٨
الواقعة	ثلة	١٣ – ٣٩ – ٤٠		
المجادلة	يعودون	٣ – ٨		
النبأ	كذابا	٢٨ – ٣٥		

	مآبا	٢٢ – ٣٩		
المطففين			كتاب مرقوم	٩ — ٢٠
عبس	سفرة/مسفرة	١٥ — ٣٨		
الانشقاق	حُقَّت	٢ – ٥	وأذنت لربها وحُقَّت	
	مسرورا	٩ — ١٣		

ومن سور القرآن ما بُني بحيث يلتقي أوله بآخره في بناء شبه دائري فتتلاحم أطرافه ومكوناته المتسلسلة آخذا بعضها بِحُجَزِ بعض، كما يفعل الناس عند تحلقهم حول مركز فيه ما يهمهم النظر إليه أو التعاطي معه بصورة أو أخرى، ومنها ما يكون أفقيا كالخط المستقيم في بنائه على النسق المعتاد بادئا بمقدمة وعرض لفكرة أو أفكار، منتقلا من واحدة إلى أخرى قد تبدو منفصلة عن سابقتها للقارئ العجل، ويُحسِن التخلص من أول إلى تال حتى تنتهي السورة بمقطع أو جملة أو صورة جامعة لأطراف موضوعاتها فيتكامل البناء وتتجلى الصلات بين جزئياتها وتزول العوارض التي سبق أن أوهمت انفصال بعضها عن بعض، فمثال الأول سورة الواقعة التي تبدأ بعرض ثلاثة أصناف من الناس: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والمقربين، وتنتهي ببيان مصائرهم، مرورا ببيان صفات كل منها على حدة وجزاء عمله متدرجا من الأعلى إلى الأسفل، بدءا بآخر المذكورين في المقدمة يليهم أهل اليمين، وأخيرا أهل الشمال في ترتيب مقصود ليجعل ذكر أهل الشمال سبيلا لتحديهم فيما سيأتي بعد من تحديات، فكان التحدث بنعم الله التي أنعم بها على عباده متحديا إياهم بعدد من الاستفهامات التقريرية تحمل نبرة التوبيخ أن ينكروا أنها من عند الله، وعندها يأتي دور الحديث عن القرآن الذي يعرض عليهم هذه الأمور بعد قَسَمٍ بعظائم من خلق الله منتهية إلى ما ذكرنا مما يقع في الآخرة للطوائف الثلاث مختصرا إياها مع

عرض صورة مفعمة بالجلال والرهبة التي تليق بالمقام سواء من جهة موضوعها، أو من جهة كونها خاتمة السورة ، أو من جهة التقائها بصدر السورة وتلاحمها معه، وهي من القرآن المكي، ومثال الآخر سورة البقرة، وهي من المدني، فقد بدئت بطوائف ثلاث أيضا من البشر: المؤمنين والكافرين والمنافقين، وطوفت معهم وصفا وتفصيلا، ومع كلٍ تنعطف على التشريع القويم الذي جاء به الدين الحنيف مصحوبا بالتحدي والتحدث بأنعم الله على عباده، ولاسيما بني إسرائيل، وبعد العرض الطويل لكل ذلك انتهت إلى عصارة الدين في خاتمتها الجهيرة التي عرضت للطوائف الثلاث تعريضا لا تصريحا، وركزت على دعائم الإسلام من الناحيتين من عقيدة وتشريع، مجلية عظمة الإسلام وسماحته، وجاء ختامها دعاء ألقاه الله على ألسِنة عباده المؤمنين ليلهجوا به في صلواتهم إلى يوم الدين، وفي القصار نجد سورة الإخلاص بادئة بجملة أُمِر الرسول بقولها، فنجد فاصلة هذه ملتقية مع آخر السورة في لفظة "أحد"، وسوف يمر بنا في أثناء درس الروابط نماذج كثيرة من هذا وذاك.

وفيما يلي عرض نماذج متنوعة من الدوالّ الرابطة التي تقدمت في الجدول السابق ودورها في إحكام الربط بين أطراف السور التي وردت فيها.

نجد كلمة "طاقة" ترد في سورة البقرة مرتين في موضعين متباعدين مختلفي الموضوع، هما:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ

قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

فالموقف الأول من هذين ورد في قصة بني إسرائيل مع ملكهم طالوت الذي ملَّكه عليهم نبي لهم ، فلما قادهم طالوت للجهاد في سبيل الحصول على ما كان يمكنهم الحصول عليه في زمن موسى عليه السلام لو أطاعوه ، وهو الأرض المقدسة التي كانوا قد وُعِدوا بها بعد الخروج من مصر والنجاة من فرعون ، فعصوا موسى وعاندوه واستكبروا ، وقالوا له ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ المائدة ، فعاقبهم الله تعالى بالتيه أربعين سنة ، ويقال أكثر منها بكثير، جاءت بعدها قصة طالوت التي بين أيدينا، ومع كل ما عانوه في التيه ومع الإصرار على العناد والمكابرة، ومع أنهم هم الذين طلبوا الجهاد في سبيل الوصول إلى الأرض المقدسة؛ مع كل ذلك عادوا إلى المعاندة والمخالفة على نبيهم ومَلِكِهم من جديد، ولم يصبر إلا قليل منهم على الاختبار الممحِّص لهم قبل بلوغ مقصدهم وملاقاة جيش "الجبارين" وقالوا هذه المقالة التي تتضمن الكلمة الدالة (طاقة) على الرغم من أنهم يعلمون أن معهم نبيا وملكا مع وعد مسبق بالنصر، وذلك لغلبة طبيعة العناد عليهم والمخالفة، ولأنهم أيضا من الذين قال الله تعالى لإبراهيم في شأنهم، وهو أعلم بهم ﴿ .... لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ البقرة ، وما

صدروا في قولهم: لا "طاقة" عن صدق إحساس بالعجز، وإنما عن تراخ وتواكل موروثين من آبائهم الذين قالوا لموسى من قبل ما ذكر آنفا، ولقد أراهم الله تعالى بعدها آية كذبهم ومطاولتهم بأن جعل فتى من فتيانهم أوتي صدق الإيمان وصدق العزيمة يصرع جالوت ملك الجبارين، وهذا الفتى هو داود عليه السلام، مما يبين لهم أن الله تعالى لم يكلفهم ما لا طاقة لهم به ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة، وأنهم كانوا كاذبين، وهنا تبرز الصلة الوثيقة بين الموضعين اللذين وردت فيهما الكلمة الدالة، والتي جاءت في الموضع الأخير في سياق دعاء المؤمنين الصادقين في آخر السورة مصحوبا بما يقدم لهم من وعد الله تعالى لعباده أنه لا يكلفهم ما لا يطيقون، ويعلمهم أن يطلبوا ذلك في دعائهم.

ولما كانت هذه الدالة "طاقة" قد **استأثرت بها سورة البقرة دون سائر السور** كان ذلك أبين لخصوصية هذا الرابط وجلاء المقصود منه في بيان وحدة بناء السورة مهما اختلفت موضوعاتها في الظاهر.

ومما يزيد الأمر وضوحا أن مادة "طاق" التي لم ترد في القرآن كله إلا فيما سبق ذكره هنا قد وردت في موضع ثالث من السورة ذاتها ، في آيات الصيام في قوله تعالى ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ البقرة، وفي معنى الإطاقة، وفي الآية على الجملة آراء متعددة منها أنها منسوخة بالتي تليها ، والذي يعنينا هنا هو ما توحي به الآية من التيسير على من لا يحتملون الصيام أو يحتملونه بمشقة ، فجعل لهم مندوحة في إخراج فدية بدلا من الصيام، وبقاؤها في المصحف له دلالة لا تُدحَض، فهذا مع

الموضعين الآخرين يعد ترجمة عملية للمعنى المراد في ختام السورة، ومن هنا يظهر أثر عمل هذه الدوال في ترابط بناء السورة، لاسيما أن هناك عدداً آخر من الدوال يعد متمما جامعا لأطراف موضوعات السورة في بناء متكامل بديع النظام.

ومن هذه الدوالّ في السورة ذاتها التعبير "**حذر الموت**"في موضعين هما: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ و﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

وأول هذين الموضعين يصف القسم الثالث من البشر الذين شرع الكتاب الكريم في وصف حالهم في صدر السورة بادئا بالمؤمنين، ومثنّيا بالكافرين ثم المنافقين، وهم طائفة من الناس يوجدون في كل زمان ومكان يبطنون الكفر ولا يصرحون به، ويظهرون الإيمان ولا يعتقدونه، وهم أشد خطرا من الكفار صريحي الكفر؛ لذا أفاض القرآن في وصف سلوكهم وتصويرهم في أقبح الصور لفضحهم والتنفير منهم، فمثّلهم بمن يتخذ نارا

يستضيء بها، فيطفئها الله لعدم استحقاقهم الانتفاع بها ويتركهم في عمايتهم، وعطف بمثل آخر جعلهم فيه كالمنقطعين في فلاة وقد أحدق بهم المطر والبرق والرعد والصواعق من جميع جهات الأرض، فلا يملكون إلا إدخال أطراف أصابعهم في آذانهم للتخفيف من أثر أصوات الرعود والصواعق خوف الموت، وهو يصف حركة غرزية يقدم عليها الإنسان عندما يحدق به الخطر، وقد يقول بعضٌ إن الصواعق والبروق تؤدي إلى وضع اليدين على العينين لا الأذنين بهذه الطريقة العفوية، ولكن الأذن ليست كالعين لأنها تفتقر إلى غطاء يحميها أما العين فالحركة العفوية لحمايتها تكون بإطباق الجفن، ومع هذا ففي الآية بعدها ذكر أن البرق يكاد يخطف أبصارهم بالرغم من إطباق الجفون، وكل هذا الذي يصدر عنهم في مثل هذه الحالة يكون الهدف منه "**حذر الموت**".

فماذا عن الدال في الآية الثانية التي جاءت قريبا من ختام السورة الأطول في القرآن الكريم؟؛ إنها تصف حالة شبيهة بالسابقة اختلف المفسرون والمؤرخون فيمن يكونون! أمن أهل واسط ، أم من بني إسرائيل!، وعلى كلٍ فالمعنى واضح في أن هؤلاء قد فروا من خطر يتهددهم "**حذر الموت**"، فأماتهم الله ثم بعثهم ليعلموا أنه ليس ثمة من يفر من الأجل إذا حلّ، فحالُ من أحاط به خطر عاقبة النفاق، وهو يحسب أن ثمة ما يمنعه منه كحال هؤلاء، وجاءت **الدالة** لتربط بين الحالين اللذين أحاطا بالسورة من أولها وآخرها تدليلا على وحدة موضوعها وبنائها، على طولها.

ويبقى التنبيه على أن **هذا التعبير من الفرائد، لم يرد في غير هذه السورة من الكتاب الكريم**، وهو ما قدمنا بأنه يمثل خصوصية داعمة لفكرة وحدة بنائها، وسورة البقرة وحدها قد تستغرق ممن يتناولها بهذا المنهج سفرا طويلا فلا يسعنا إلا الاكتفاء بهذا النموذج منها.

وفـي سـورة سـبأ نجـد مـن الـدوالِّ عـددا نجتـزئ منهـا فـي هـذا المقـام بالنموذج الآتي:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ و ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

لقد كـان اسـتقبال كفـار مكـة –كمـا وصـفته الآيـة الأولـى – بهـذه الكلمات الساخرة وأمثالها لفكرة البعث حين أخبرهم بها الرسول ﷺ ، فجاء القرآن بما يقلب هذه السخرية على رءوسهم بوصف كفار اليمن الذين غرتهم الحياة الدنيا ونعيمها في "اليمن السعيد" وألهتهم عن واجب الشكر للمنعم معلنين بالخلاف على داعي الإيمان ، وبالإعراض عن تقديم حق الله عليهم بطراً واستعلاءً ؛ فكان جزاؤهم أنهم صاروا عبرة لكل من يعتبر ، وأحاديث للواعظين والمتعظين، و"**مزقوا كل ممزق**" على حد التعبير **الذي لم يرد في القرآن كله في غير هذين الموضعين من سورة سبأ ، بل إن مادة "مزق " لم ترد أيضا في القرآن كله إلا هنا**، مما يوجه المتلقي إلى خصوصية الصلة بين ما وقع لهؤلاء العصاة، وما ينتظر كفار عصر النبوة وما بعده من سوء العاقبة في الدارين.

ومن هذا القبيل ما ورد في سورة الصافات في موضعين منها هما: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ و﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾، هذه السورة عجيبة البناء من مبدئها إلى منتهاها إذ افتتحت بالحديث عن الملائكة الذين هم

عباد الرحمن ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ ﴾ واستمر في وصف مواقف الكفار من قضايا الخلق والخالق والمخلوق، وأخذ في جدالهم ونقض أفكارهم ومعتقداتهم، وتقريعهم وزجرهم وتهديدهم، والتهكم بهم والسخرية منهم ومما يعتقدون ويقولون، بادئا بقضية الخلق بتوجيه أمر لنبيه بسؤالهم منزلا إياهم منزلة من يعي ويعلم ويفتي ويُستفتى استدراجا لهم وتهكما في آن، واستمر على ذلك حتى أفضى إلى أوج الجدال والإفحام فعاد إلى أمر نبيه بـ"استفتائهم"من جديد فيما ادعوه من أن الملائكة إناث، وهم في ذات الوقت ينبذون بناتهم ويئدونهن ويستبقون الذكور اعتزازا واعتزاء بهم! واستمر في تقريعهم في الآيات بعدها حتى فاجأنا بإسناد الخطاب في أخريات السورة إلى الملائكة أنفسهم ليردوا ويردعوا أصحاب هذه المقالات الساقطة: ﴿ ...وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ ﴾ ليعود آخر السورة ليتلاحم مع أولها بطريق دالَّة "**الصافات**" في صدر السورة و"**الصافون**" في خواتيمها، والتي جاءت بصيغة المذكر حسما للقضية، لا على سبيل أن الملائكة ذكور، بل لإفساد قصد القائلين بالتأنيث، أما الملائكة أنفسهم فهم في ذاتهم خلق من خلق الله، خلقوا ليعبدوه ويطيعوه، ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يتكاثرون كما الآدميون، والصافات في أول السورة وصف للجماعات منهم ولا يعني أنهم إناث ، درءا لشبهة التناقض، **(والتأويلات الأخرى في "الصافون" لا أثر لها على دلالة هذا الدال في بناء السورة وتكامله وإحكامه)**، ويبقى التنبيه على أن الدالتين كلتيهما لا نظير لهما في القرآن، بما يعني أنهما مقصودتان لتحقيق الربط بين أجزاء السورة.

وهكذا تتوالى الدوالُّ الرابطة لبناء السورة مؤدية دورها في بناء الكتاب المعجز الذي ما فتئ يجود علينا كل حين بما لا عهد لنا به، ولم نكن نعلمه، ولا نحيط به من عجائبه.

وفي سورة النور وردت كلمة "عورات" بصيغة الجمع في موضعين، هما: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولم ترد هذه الصيغة في غير السورة.

ويلحظ أن معناها في الأولى مغاير لمعناها في الثانية تبعا للمقام ؛ ففي الأولى المقصود بها مواطن الفتنة من الجسد ، وخصه هنا بالمرأة ، في مقام تعداد من يحل للمرأة التكشف وإبداء الزينة أمامهم دون غيرهم ، ومن بين من يباح للمرأة إبداء الزينة في حضورهم – وإن كانوا من غير المحارم – الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحلم ولا يخشى عليهم الفتنة ، هذا مقام وردت فيه الكلمة بهذا المعنى.

وفي الآية الثانية يحدد الشارع أوقات منع دخول أحد إلى ما وراء الأستار والأبواب دون إذن وهي الأوقات الواردة في الآية ، فسمى هذه الأوقات "**عورات**" مجازا لأن الإنسان إذا خلا فيها تخفف من ملابسه وربما تكشف شيء من عورته.

وعلى الرغم من التغاير بين المعنيين والموضوعين فالصلة بينهما لم تنقطع والرابطة بينهما قائمة في تعداد الآداب المرعية في العلاقات

الإنسانية والسلوك القويم الذي يغلق أبواب الفتنة ويمنع الوقوع في المحرجات من المواقف التي قد تسبب غضاضة وحرجا أو بغضا بين الناس ، وبهذا يتبين أثر هذه الكلمة في تواصل المعاني بين أجزاء السورة.

وفي سورة طه الكثير من هذه الدوال مثل: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ ﴾ و﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧ ﴾ و﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ ﴾ كلمة "تشقى" لم ترد بهذه الصيغة في غير هذه السورة . وكذلك كلمة "ٱلنُّهَىٰ" في قوله ﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ﴾ و﴿ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝١٢٨ ﴾ فكلمة "ٱلنُّهَىٰ" لم ترد في القرآن كله في غير هذين الموضعين .

وفيها "نسفا" في قوله : ﴿ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسٗاۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفٗا ۝٩٧ ﴾ و ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ ﴾ ولم يرد هذا التركيب في غير هذين من القرآن

وفيها "ٱلۡعُلَىٰ" في قوله : ﴿ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ﴾ و﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥ ﴾.

لم ترد في القرآن إلا هنا في هذين الموضعين .

ومن أنماط الدوال ما هو معنوي ، وهذا من أدق أنواع الدوال وأكثرها أثرا في ترابط البناء غير أنه يخفى في كثير من الأحيان ، ومن

طرائف هذا النمط ما ورد في سورة النمل في أولها من كلام النملة ، وآخرها من كلام دابة الأرض ، ففي أول السورة في خبر سليمان يقول ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ ﴾ وفي آخرها يقول ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢ ﴾ ، يحدثنا القرآن في أول السورة عن غريبة من غرائب معجزات الأنبياء وهي ما علَّمه لنبيه سليمان من لغات المخلوقات ؛ فقص خبر هذه النملة وما قالته لقومها محذرة وفهمه عنها سليمان ، وهذا النوع من المعجزات يصعب تصديقه لمن لم يره ، فجاء في آخر السورة بما هو أشد عجبا ، وسيقع في آخر الزمان ، وهو خروج دابة من الأرض ، وهي الجساسة تكلم الناس وتفعل بالضلال منهم الأفاعيل، ودور الدالة المعنوية هنا الجمع بين معجزتين وقعت أولاهما، والثانية منتظره فمن كذب بإحداهما ردته الأخرى، ومن كذب بهما استحق ما يجري على أمثاله، ولا شك أن عصرنا هذا قد أتى بكثير مما كان يُظن أنه وهم وخيال والمفترض أنه يُقرِّب هذا من التصديق، وفي سورة النمل غرائب وعجائب كثيرة في أخبار موسى وسليمان، ولم تردع المكذبين على مر التاريخ، ومثل هؤلاء لا يردعهم إلا وقوع القول عليهم بعد انقطاع العذر وتحقق وقوع العذاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومما يعود بالفائدة من دراسة الدوال أيضا الكشف عن الروابط بين السور كما في الأنفال والتوبة ففيهما نكتة لها دلالتها، أحسب أنها لم تستلفت أحدا من قبل ، فقد نقل عدد من المفسرين عن العلماء المتقدمين منذ القرن الأول أن الأنفال وبراءة سورة واحدة ، ودليلهم أنهما في موضوع

واحد ، وأن آخر الأولى يلتقي وأول الثانية، ومكمل له في الولاء والبراء، وأنه لم يُفصل بينهما بالبسملة، ولعلل أخرى، ومن واقع درس الدوال الرابطة بين أطراف النص والكاشفة عن وحدة بنائه وتكاملها نسوق آية من كل سورة منهما فيما يلي:

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ **فَأَنَّ** لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ الأنفال، و ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ **فَأَنَّ** لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ التوبة.

لم يرد في القرآن كله "**فأنَّ**" بالفتح إلا في هذين الموضعين من هاتين السورتين، ومثله التعبير المتضمن كلمة "**حسْب**" في موضعين من الأنفال هما ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ وهي بمعنى: يكفيك، يطمئنه أنه ما دام معتصما بحبل الله فإنه كافيه وناصره مهما تواطأ المشركون عليه وعلى المؤمنين، وهو الذي أيده ونصره في مواقف كثيرة ذكر بعضا منها في هاتين السورتين، ثم أتى بنظير هذه الدالّة في سورة التوبة في ثلاثة مواضع، أظهرُها الذي يأتي في ختام السورة وهو قوله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ تحقيقا له وتطبيقا، ودعوة لمواصلة الاعتصام بحبل الله والتوكل عليه في كل المواقف مهما تكاثرت الهموم عليه، ومهما لقي من عنت في الدعوة إلى الله، من المنافقين والمشركين والكفار، الذين

عرضت السورة لمواقفهم من الدعوة وما سينالهم من عقاب في الموضعين الآخرين اللذين ورد فيهما التعبير الذي معنا، وهما: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ و﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولم يرد هذا التعبير بهذا المعنى إلا في مواضع متفرقة من سور البقرة: ٢٠٦، آل عمران: ١٧٣، والمائدة: ١٠٤، والزمر: ٣٨، والطلاق: ٣، والمجادلة: ٨ ولم تجتمع على هذا النحو إلا في هاتين السورتين، الأنفال والتوبة، وفيهما أيضا مشابهات عديدة في الأساليب، نراها غنية عن استعراضها لما سبق ذكره من وحدة موضوعهما، وأحسب أن هذا أيضا مما يعزز وجهة النظر القائلة بأنهما سورة واحدة عند من قال به، ولكن الذي يغلب على الظن هو الرأي الآخر الذي يقول إنهما كما هما في المصاحف كلها سورتان، وكل تلك الوجوه من التلاقي والتكامل بينهما هي من وجوه التلاقي والتكامل في النص القرآني كله، ومن وجوه وحدة بنائه التي ما زالت تخفى على كثير من الناس بسبب الخلط بين فكرة الموضوع والغرض من جهة، وفكرة وحدة البناء الكلي والصورة المكتملة الجامعة للصور الجزئية من جهة أخرى، وإنه لمن الشطط بل العبث أن يقال عن كل ما تلتقي فيه سورتان من مشابهات من الدوال وغيرها إنه يحمل دلالة على أنهما سورة واحدة، كأن يقال عن الإسراء والفرقان شيئا من ذلك لقرب طابعهما العام، ثم يحتج لذلك بأن كلمة "كُفُورا" بضم الكاف لم ترد إلا فيهما في موضعين من كل منهما (الإسراء ٢٧، ٦٧) و(الفرقان ٨٩، ٩٩)، فقد يصح

الاستدلال به على تقارب طابعهما ، أما الأخرى فلا ، ولا يقال مثله في سور: الفجر والقدر والعصر، ولا في: التين والماعون، أو غير ذلك.

وكل ما سبق ذكره من نماذج وأفكار يستحق أن يفرد بدرس يجمع كل ما نقدم له به من هذه المباحث، ونسأل الله المعونة على ذلك.

ولو تعقبنا ما ورد في الجدول المتقدم وما يستجد بعدُ من هذه الدوال لتم به لنا سفر كبير، فنكتفي بهذه النماذج لننتقل إلى نقطة أخرى غير بعيدة ، وكنت قد بدأت القسم الآتي بنموذج من القرآن المدني لنُلِمَّ ببعض معالم الترابط في سورة مدنية –هي سورة النساء– قبل أن نعكف على النموذج المختار للتعامل معه في ضوء الدوال وهو من المكي ، ولكن الحال اقتضى تأجيله اكتفاء بما يلي تأكيدا للظاهرة وتطبيقا عمليا لبيان أثرها في تحقيق وحدة بناء السورة.

* * *

سـورة مـريم
دوالُّها وفرائدها

سورة النساء مدنية، ولها طابع مغاير لطابع المكي؛ لذا وقع الاختيار على سورة مريم لتمثل النموذج المختار لاستكشاف دور الدوالِّ الرابطة فيه وأيضا لمناسبته لهذا المقام، ولسبب آخر من جهة الأعمال السابقة، وعلى رأسها كتاب "**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**" للبقاعي، وهو مما نعتز به من أعمال العظماء السابقين، ولكنه مرَّ بالسورة على طريقة المفسرين المعتادة دون أن يشير إلى انتظام الآيات في بنائها، بل كانت عنايته بربطها بما قبلها وما بعدها أكبر من عنايته بما نحن فيه من أمرها، اللهم إلا من لفتات قليلة الغناء، ليس من بينها **تلاحم الأطراف** الذي لم يستقم له إلا مؤخرا في كتابه، ولهذا توجهت نحوها –أي سورة مريم– كمن يريد أن يكمل نقصا وجده في بناء شامخ مرَّ به وأعجبه فلم يتحول عنه حتى يحاول إتمامه حبا فيه ، ونسأل الله التوفيق.

وأود الإشارة إلى أن عملية وصف رصف بناء السورة قد تستدعي النظر في أنواع الدوالِّ بما فيها الدوالُّ التي تشاركتها مع سور أخرى من الكتاب الكريم، إن كان لها من خصوصية الدلالة على تكامل السورة هنا ما يستدعيها، وسيقتصر تنبيهنا على ما هو خاص بها من **الفرائد** دون ما عداه.

ولسورة مريم جرس خاص يميزها شأنها في ذلك شأن أكثر المكي، ولها كذلك تركيب وبناء محكمان، وهذا هو ما نسعى لتعقبه فيما يأتي، فبناؤها يتشارك فيه عناصر من الروابط تتجلى لأول وهلة لمن يقرؤها، وأكثر منه من يسمعها نظرا للجرس الصوتي الذي يغلب عليها، ولنكن على ذُكر من

أن القرآن ما سُمي قرآنا إلا لأنه أنزل ليُقرأ على المدعوين والمؤمنين وكل البشر، وهذا معلوم للكافة ، وهذه السمة تبرز جلية في هذه السورة على نحو يشاركها فيه عدد من السور المكية بحيث لا نستطيع أن نفاضل بينها في ذلك، اللهم إلا إذا أخذنا في الاعتبار ما تختص به كل سورة من سمات فارقة بينها وبين غيرها، وربما نجد بعض السور تتشارك في روحها وطابعها كالبقرة وآل عمران، والإسراء والفرقان.

وطابع سورة مريم وروحها يمكن أن يجعلا وصفها بأنها سورة الرحمة أكثر غلبة عليها ، ويمكن أن يكون وصفها بأنها سورة الذِّكر كذلك ، ولا غرو أن مفتتحها دالٌّ على هاتين الصفتين ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ ﴾ وجامع بينهما ، كما أنها أكثر سور القرآن احتواء على اسم الله تعالى"**الرحمن**" (١٦ من ٥٧) ، وهي أيضا أكثر سورة وردت فيها مفردات مادة (ر ح م) بصورة لافتة تؤكد ما ذهبنا إليه من أنها سورة الرحمة.

وهي تقص علينا عدداً من قصص الأنبياء في سياق معجب مشوق لا يملُّ سامعه منه ولا من ترداده مرات ومرات ؛ فهو على وجازته يعيد إلى الذهن تفصيلات القصة المبسوطة في غيرها من السور فتمثل في مخيلة السامع كأنه يراها رأي العين ، وبحسبك سماع تلك النبرة المليئة بالحنان والرحمة والحب في ذلك التعبير الذي يتصدرها بعد حروفها المقطعة التي هي سر من أسرار القرآن ، فهو يفتتح قصصها الذي يستغرق القسم الأول منها بالاستهلال الوجيز المفضي إلى قصة زكريا عليه السلام الذي حُرم الولد حتى أدركه الهرم ، حتى خشي ألا يحمل عبء الرسالة من بعده أحد ، أو أن تؤول إلى من ليس لها أهلا ، فنادى ربه ذلك النداء الموصوف بالخفي، في مناجاة لعلها ليليَّة في محرابه، وقد نامت العيون وعم السكون،

فلباه من لا يغفل ولا ينام بردٍّ عاجل حملته ملائكة رحمته مبشرة بيحيى واصفة إياه وصفا جليلا مطمئنا العبد الملهوف أنه برحمة الله تعالى وقدرته سيجتاز كل العراقيل من هرم وعقم زوج وخوف ضياع أمانة الرسالة، ويأتيه الولد الموعود الذي وصفه ربه بأجلِّ الصفات وأرقّها، وجعله برا بوالديه، ولم يجعله براً فقط ككثير من الأبناء، وإنما جعله **حنانا** من لدنه، تلك الكلمة التي لم ترد في القرآن كله إلا في هذا الموضع فصبغته بكل معاني الود الخالص والرحمة والألفة والمحبة ، وعرجت بعد ذلك على مريم واصلة قصتها بقصة من تكفَّلها بلفظ "**اذكر**" الموجه إلى حامل الوحي ومبلغه، فجاء هذا الفعل وكأنه استئناف لما تقدم من "**ذكر**" "**رحمة**" رب رسول السماء المخاطَب أو **المبلِّغِ** لينبه السامع إلى أن القصة الآتية ليست بمعزل عن السابقة ، وهو ما سوف يطالعنا به كل مقطع آت من السورة في تقديم أخبار الأنبياء في قسمها الأول، واصلا به بين كل سابق ولاحق منها لجعلها "صورة" متكاملة في "سورة" واحدة اسمها مريم أو الرحمة أو الذكر، ولما مضى في قصتها المعروفة وجدنا الدوالَّ الرابطة تنهمر علينا لتربط بينها وبين ما سبق من قصة راعيها زكريا وولده يحيى عليهما السلام، ومنها قوله : ﴿ **قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ الذي أعاده المَلَك عليها بنصه كما قاله لزكريا من قبل ﴿ **قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾، عدا ضمير المخاطب الذي توجه للمؤنث "**كَذَٰلِكِ... رَبُّكِ**" ، ثم في وصف المَلَك ﴿ ....فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا **سَوِيًّا** ﴿١٧﴾ ﴾ الذي يستدعي إلى الذهن وصف المَلَك لحال زكريا الذي سيكون

علامة لتحقق بُشراه بالولد ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ ﴾ ، وهما وصف واحد لجِرمين (البشر والمَلَك) مختلفين تكويناً، وهو مختلف مدلولا ؛ **فسوي**ّ الأولى تعني معافى من العلة لم يصبه خرس، والثانية تعني أن المَلَك تمثل لها في صورة إنسان لا يشوب هيأته شيء يوحي بأنه غير بشر، ثم قولها للمَلَك ﴿ .... إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ ﴾ الذي يلائم وصف يحيى السابق ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ ﴾، ثم نجد رابطا آخر بين الموقفين اللذين يتدخل فيهما عنصر غير بشري –المَلَك– متحاورا مع كل من زكريا ومريم في شأن هبة السماء، وهي الغلام، فكان رد المَلَك عليها فيما أبدته من الخوف ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ ﴾، ووصف "زَكِيًّا " يلتقي مع وصف يحيى السابق "وَزَكَوٰةٗ" ويجيء ردها عليه المنبئ عن دهشتها وتعجبها بل واستنكارها ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ هو نظير رد زكريا السابق الذي ينبئ عن مشاعر قريبة من مشاعر مريم ولكنها أقل في أثرها عليه لاختلاف حاليهما ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ ﴾، فهو الذي طلب وأجيب إلى طلبه ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ ﴾ وهو زوجٌ وامرأته معه ، وإن كانت عقيما، وما دهشته إلا بسبب هرمه وعقمها، أما مريم فهي فتاة بكر بلا زوج، ولم يمسسها بشر، ومع هذا جاء التعبير عن الدهشة واحدا للتنبيه على الصلة بين الحدثين المرتبطين بالمشيئة الربانية ، وليثير في أذهاننا مثل هذه الأحاسيس المتعاطفة مع الطرفين كلٍ في حالته سواء بالابتهاج والسرور

لبشرى زكريا ، أو بالإشفاق والخوف مما سيحل بمريم من الفضيحة وما يتبعها ، وفي غمرة البلاء الذي أصاب مريم تجيء كلمة "نَسْيًا" في موقفين لم يُبْتَل بهما في الوجود غيرها ، أولهما في ردها على المَلَك ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ ، والآخر فيما بَهتَها به قومُها ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ ليكون التعبير المتضمن للدالَّة في الموضعين آية في الدلالة على عظم البلاء الذي حل بها، فما نفته عن نفسها في أولهما هو عين ما اتُهمت به في الآخر، ثم يأتي رابط آخر جامع بين يحيى وعيسى، هو قوله ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾، وقول القوم لمريم استنكارا لإشارتها إلى ولدها أنه يجيبهم عما سألوها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾، لتنهنه من غلوائهم وتبجحهم؛ لأنهم لو وعوا حقيقة ما كان عليه آل عمران المصطفون من العلم بالله والثقة بقدرته لتريثوا قبل أن يتهموها لأول وهلة ويصموها بتلك الوصمة الشنيعة، وبقولهم عليها "بهتانا عظيما" فالإشارة في حد ذاتها تنبيه منها وتذكير لهم بما رأوا من حال يحيى الذي أوتي على صغره من الحكمة ما يفتقر إلى مثله الكبار ، ولكنهم قوم لا يعقلون!، ولما كانت "صبيا" لم ترد في القرآن في غير هذين الموضعين فلا شك أنها دالَّة مقصودة ؛ قُصد بها التنبيه على ما ذكرناه، وكذلك وصف يحيى ﴿ ... وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾، ووصف عيسى نفسه ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾، و مجيء وصف يحيى بأنه كان "وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ" الذي يقابله وصف عيسى لنفسه بقوله "وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي"، روعي فيه اختلاف الحالين، فأولهما له

أب وأم عليه بِرُّهما، والآخر بلا أب، وأمه التي تحمله بين يديها في موضع اتهام؛ فيجيء هذا التعبير منه وهو في مهده ناطقا بمعجزة مبرئا أمه إذ يقول "برا بوالدتي" وما كان له أن يقول غير ذلك، وهكذا نجد الإبداع كله في هذا التعبير الذي يربط بين القصتين مع التفرقة بمنتهى الدقة التعبيرية بين الحالين الموصوفين، بل إن بنية المفارقة التعبيرية كان لها دور كبير في لفت انتباه السامعين إلى أن تعبير عيسى الطفل أدى هذه المهمة قياسا على وصف يحيى، وما كان ليتحقق إلا بهذا القياس.

وبعد ذلك يستطرد السياق مع ما كان من أحداث في حياة عيسى وبعد رفعه حاملاً إدانة واستهجانا لمواقف أتباعه ومناوئيه على السواء، بين مَن ادّعوا أنه ابن الله افتراء عليه وعلى ربه مبالغة في تمجيده، ومن عادوه ولم ينصاعوا لما دعاهم إليه وحاولوا قتله كما فعلوا بيحيى و زكريا، وينهى الكلام المعترض في السياق (وهو من قبيل استرداد مقادة الخطاب تحقيقا لمقاصد التنزيل) بالعودة لحكاية ما بقي من مقالة عيسى ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ وكأنه أخَّرها في السياق لتكون بمثابة الرد المفحم الذي يجيء على لسان عيسى نفسِه معلنا براءته مما افتروه عليه وعلى ربهم، ويستمر وصف حالهم حتى يتوجه بالأمر إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بأن ينذرهم سوء العاقبة، ويذكرهم ببأس الله تعالى وبأنه وارث الأرض ومن عليها.

وتمضي السورة بعد ذلك واصِلَةً مُوَاصِلةً قصص الأنبياء من لدن أبيهم إبراهيم مستهلة ذكر خبره مع أبيه وقومه بالرابط الدالّ ذاته الذي استهلت به قصة مريم وعيسى بالأمر ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾، لتأتي بعده بدالٍّ رابط بين قصة إبراهيم وما سبق من قصص ؛ إذ قال لأبيه

وهو يدعوه لنبذ عبادة الأوثان﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ چ ليستحضر بها الوصفين السابقين في قصتي زكريا ومريم ، فهذه ثلاث مرات ذكر فيها لفظ "سويا" الذي لم يرد في القرآن كله غير مرة واحدة في سورة الملك ، وكذا الصراط الذي سبق في كلام عيسى "أَ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ" ، ثم ما لبث السياق أن جاء برابط آخر بين هذه القصة ووصف يحيى "وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا "، فقال إبراهيم لأبيه ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ ﴾، وفي هذا الرابط الفريد لطيفة تُلمِح إلى أن يحيى لما قال هذا كأنه كان يشير إلى أنه لن يتبع الشيطان الذي كان للرحمن عصيا؛ لاسيما أن إبراهيم قد نصح أباه بألا يتبع الشيطان في عصيانه لله، وأنه لا شك أن يحيى كان على دراية بما قال جده إبراهيم لأبيه ، وأيضا بما قال إبليس لربه من ذلك القول الذي تُحيل عليه إشارة إبراهيم المذكورة ، وهنا يطالعنا حنان الولد وخوفُه على مصير أبيه وحرصُه عليه، الذي شغل حيزا كبيرا من مقتبل دعوة إبراهيم، فنراه حدبا عليه وحبا بعد اليأس منه يقول له ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ فيأتي على لسانه دالٌ رابط آخر بين قصته وقصة كل من يحيى وعيسى في وصف أولهما بقوله ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾، ووصف عيسى نفسه بقوله ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ مع الفارق الدال على شخصية إبراهيم الأواه الحليم، إنه لم يقل سلام عليّ بل قال "**سلام عليك**" مؤثراً أباه بها على نفسه على الرغم من كفره وتهديده إياه بالرجم ، عملا بمبدأ ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا

مَعْرُوفًا ..... ﴿١٥﴾ ﴾ لقمان ، وللننظر إلى مفارقة أخرى يحدثها تلاقي الدوالِّ وتفارُق المؤدَّى الذي ترك أثره في نفوس السامعين الواعين فيما يوحي به لفظ "وليا" السالف الذكر في مناجاة زكريا لربه ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ مقارَنا به في قول إبراهيم لأبيه ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾، فما بال السامع بما بين تلك الولاية التي يسترحم زكريا ربه أن يهبه إياها في صورة ابن له، والأخرى التي يحذر إبراهيم أباه أن تصيبه ، وهنا مع نهاية قصة إبراهيم مع أبيه واعتزاله إياه وقومَه تُهِل علينا دالّة أخرى تربط بين نعمة الله على إبراهيم وما يتمها من نعمته على سلالته من جهة إسحاق ويعقوب، هي تلك الهبة التي سألها زكريا ربه للحفاظ على ذرية إبراهيم متمثلة في يحيى، والهبة التي وهبها الله لمريم متمثلة في عيسى، ثم بالهبة التي وهبها لإبراهيم متمثلة في إسحاق ومن ورائه يعقوب، والآيات الحاملة لهذه الدوال بين أيدينا هي ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ و ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ و ﴿ ... وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ وفي كل ذلك تمثلت الهبة في الولد ، والولد من زينة الحياة الدنيا ، ومن فضل الله عليهم أنها لم تقترن هنا بالمال!.

وإذا ما واصلنا الرحلة مع السياق المكوّن للصورة الكلية لبناء السورة كان أول ما يواجهنا بعد الدالّة الرئيسة الرابطة ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ... ﴿٥١﴾ ﴾ رابطة **الهبة** من جديد ، حيث يقول ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ

هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ ولنتأمل أن الهبة هنا كانت أخا لا ولدا ، وكان فيها نعم الهبة؛ لأن الموهوب نبي أولا، وقام بعمل الوزير والخطيب والنائب عن أخيه المبتلى في لسانه خير قيام، وبها نجد هارون يعود ليتصدر الصورة مرة أخرى، بعد التي عيَّر فيها القوم مريم بقولهم "يا أخت **هارون**...."، فإذا كان من المعلوم أن هارون هو أخو موسى ووزيره، فمَن هارون الذي تهكم القوم عليها به؟ لقد وقع كثير من الخلاف والأقاويل في هذا العَلَم ، أهو هارون أخو موسى، فقد قيل إنها من سلالته، لأنهم كانوا كما العرب يقولون لفلان هو أخو بني تميم أو مثل ذلك، ونقل ذلك عن النبي ﷺ، أنه أحد الصالحين من بني إسرائيل نسبوها إليه إشارة إلى أن ما أتت به لا يليق بمن تنسب إليه، ومنهم من قال إنه أحد من اشتهروا بالفساد منهم في تهكم صريح ، ولكن الذي عليه التعبير هنا أنه تهكُّم بها باتفاق ، وعلى كل فمجرد ذكر اسم هارون هنا دون اسم أبيها أو كفيلها دال على رابطة في السياق تصل ما بين أطراف بناء الصورة الكلية للسورة من لدن موسى وأخيه هارون إلى مريم وابنها عيسى وما بينهما ، وفي سياق ذكر موسى وهارون تطل علينا الدالة التي تصدرت السورة في قوله "ذكر **رحمة** ربك عبده زكريا" للمرة الرابعة والأخيرة في قوله "ووهبنا له من **رحمتنا** أخاه هارون"، وبينهما جاءت مع مريم على لسان الملك "ولنجعله آية للناس و**رحمة** منا"، ومع إبراهيم وذريته "ووهبنا لهم من **رحمتنا**"، فأحكمت الرحمة رباطا وثيقا بين كل أطراف ما سبق ذكره من أخبار النبوة، ولا يغيبن عنا وفرة ذكر اسم **الرحمن** في السورة، والذي لم يذكر في السورة الموسومة به – سورة الرحمن – إلا مرة واحدة في صدرها، مما صبغها، أي سورة مريم، بصبغة الله تعالى التي تليق بعظمته ورأفته ورحمته "إن رحمة الله قريب من المحسنين"؛ ألا تستحق هذه السورة أن توصف بأنها سورة الرحمة ؟، بلى .

وتتوالى أوامر السماء بالذكر منتقلة إلى إسماعيل بعدما أتمت رحلتها مع إبراهيم ومَن خلَفَه من ذريةٍ في فرع إسحاق، "واذكر في الكتاب إسماعيل"، ويُذكر أبو العرب هنا بصفة صدق الوعد إلماحا إلى امتثاله لما أمر الله به أباه في قصة الذبح، أو غيرها، وبصفة النبوة والرسالة، وأنه كان يأمر أهله بالعبادة مركزا على الصلاة، ثم **الزكاة** التي نتوقف عندها لنجد أنها تمثل دالّة رابطة بين ثلاثة أطراف ذكرت في السياق، أولها يحيى في قوله "وحنانا من لدنا **وزكاة** وكان تقيا" وثانيها قوله على لسان عيسى "وأوصاني بالصلاة و**الزكاة** ما دمت حيا" ومعها وصفه على لسان الملك "لأهب لك غلاما **زكيا**"، وهذه التي معنا في خبر إسماعيل" وكان يأمر أهله بالصلاة و**الزكاة**"، و لا يؤثِّر في ذلك ما وقع من تعدد الآراء في مفهوم "**زكاة**" الذي وصف به يحيى، عليهم جميعا وعلى نبينا صلوات الله وتسليماته، وأخرى في هذا السياق رابطة بين ذكر إسماعيل وذكر يحيى فيما سأل زكريا ربه في قوله "واجعله رب **رضيا**"، وهنا "وكان عند ربه **مرضيا**" ولم ترد هاتان الصيغتان فيما عداها من القرآن إلا في الفجر "راضية مرضية"، ولا يتوقف مدلول هذا الرابط على الربط السياقي بين طرفي القصة بل يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك في عمق تاريخ النبوات، فإسماعيل هو الابن البكر لأبي الأنبياء إبراهيم، وكل مَن ذُكر في السورة قبله كانوا من نسل إسحاق ، فتجيء هذه الرابطة وما قبلها لتصل بين الطرفين في استحقاق إرث النبوة من لدن إسحاق إلى عيسى ومن لدن إسماعيل إلى نبينا ﷺ، للتنبيه على أن هذا من ذاك؛ لتزيل العجب من انتقال النبوة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل بنزول الوحي على نبينا ﷺ، ويجيء بعدها آخر من تذكرهم السورة من الأنبياء فيعود السياق بنا القهقرى إلى زمن أبعد من زمن نوح لنفاجأ بإدريس "واذكر في الكتاب إدريس" تلك الدالة **الفريدة**

(لم ترد في غيرها) الرابطة التي يكون هذا الموضع هو خاتمة ما قامت به من دور رابط بين أطراف بناء السورة، ولا نلبث أن نجده مرتبطا بمن سبقوه في السياق هو الآخر، وهو سابقهم جميعا، إذ وصفه ربه بقوله "ورفعناه مكانا **عليا**" ليعيد إلى ذاكرتنا ما سبق وصف إبراهيم وصالحي ذريته به في قوله "وجعلنا لهم لسان صدق **عليا**" تلك الصفة التي لم ترد في وصف غير الله تعالى في القرآن إلا في هذه السورة، وما هي إلا مرة واحدة في النساء"إن الله كان عليا كبيرا"، وهي هنا دالة على صدق النبوة في شأن إبراهيم وبنيه وعلى علو مكانة إدريس عند ربه، تلك التي خاض فيها أهل الأثر بما لا يعنينا هنا تعقبه، والمحصلة أن هذه الدالة جاءت لتصل حبل النبوة من بعد نوح إلى ختامها، وخاتمها ﷺ .

وقبل المضي من آفاق النبوة المحلقة في عليا المثل المضروبة لنا هنا يُجمِل السياق وصف هذه الثلة من الأولين الصالحين في قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ يدعونا رب العزة إلى التمثل بهم فنخر سجدا له عند تلاوة هذه الآية أو سماعها اعترافا بفضله على بني آدم أن أرسل إليهم هذا الرهط من المصلحين الداعين إلى الهدى والرشاد.

* * *

ثم ينطلق النص بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من البناء الكلي للصورة يصف فيها ما أوقعه الخَلَف من التنكر لفضل الخالق المنعم، وهنا وقفة لا بد منها نشير فيها إلى سمة من سمات الإبداع الأدبي عامة، ينطبق عليها وصف "**البنية التقابلية**" في النص الأدبي، وهي تقنية لا يكاد يخلو منها

نص أدبي ، وهذا المصطلح فيه شيء من العموم إذ هو قابل لأن يدرج تحته كل أنواع التقابل اللفظي والمعنوي بدءا بالطباق والتضاد والمقابلة وانتهاء بأطراف بناء النص التي ينتقل فيها الوصف من المعنى إلى ما يقابله أو من الضد إلى ضده ومن الصورة إلى مقابلتها، كما في وصف معاني الخير والشر ونماذجها من البشر وغيرهم، والصفات المتقابلة عامة كالطول والقصر والخفة والثقل والسمنة والنحافة والغنى والفقر ودماثة الطبع وسوء الخلق ...إلخ .

وقد كان درس **البنية التقابلية** حريا بأن يكون هو التطور المنطقي لدرس الطباق والمقابلة في البلاغة العربية، فكما أن الطباق يبحث في اللفظتين المتضادتي المعنى، والمقابلة تبحث في الجملة وشبهها؛ كان ما اشتمل على ذلك في بناء النص الأدبي حقيقا بأن يدرس، وهو المعنى العام أو الموضوع أو الصورة الكلية، كل وما يقابله ، وأن يكون لبنة من لبنات **علم البناء الفني للنص الأدبي**؛ لاسيما أن البلاغة العربية قد نشأت في أحضان القرآن الكريم واستقرأته واستمدت منه كثيرا من قواعد علومها وشواهدها، والقرآن فيما أرى يعد من أغزر النصوص احتفالا بهذه الظاهرة وإيرادا لها وتوظيفا؛ إن لم يكن الأغزر والأكثر على الإطلاق.

ولهذا ربما يقودنا الدرس إلى استنتاج له وجاهته في الدرس البلاغي في ضوء القرآن الكريم، وهو أن كثيرا من صور الطباق والمقابلة إنما هو جزء من كلٍ هو **البنية التقابلية**، بما يعني أن هذه الأخيرة هي الأصل، وعليه يكون البلاغيون قد تركوا الأصل وعكفوا على الفرع، وأقصى ما بلغوه من نظر إلى الأصل كان التنبيه على ما في صور البنية التقابلية من متقابلات صغرى، من طباق ومقابلة، بمعنى أنهم كانوا يقومون بـ"تفكيك"

هذه البنى إلى جزيئات حتى تدخل في نطاق –أو لنقل– تحت سقف الدرس البلاغي الذي وضعوه مختارين فوق الرءوس، تنبوا لذلك أو لم ينتبهوا.

والتقابل كما هو في القرآن وغيره من أجناس الأدب هو أن يساق الموضوع أو الصورة والموضوع المقابل له أو الصورة المقابلة بهدف بيان محاسن كل أو مضاره قياسا لكل منهما على الآخر لتحقيق غاية جمالية أو نفعية أو كلتيهما تهدف إلى إيضاح معالم الفكرة الكلية ، وإعانة المتلقي على تقرير ما يراه من موقف تجاه تلك الفكرة، ولا شك أن عمل المنشئ له دور كبير في استمالة المتلقي بالتحسين والتقبيح والترغيب والتنفير وما إلى ذلك، وهو مطالب باستعمال ما يناسب المقام من عناصر العمل الأدبي من أساليب وصور وأمثال وغير ذلك، والبنية التقابلية في القرآن الكريم غنية عن الوصف والتمثيل لها ، فلا تكاد تخلو سورة من سوره منها ، وأكثر ما يكون ذلك في المقابلة بين الإيمان والكفر، والخير والشر، والطاعة والمعصية، والحسنة والسيئة، والسماء والأرض، والدنيا والآخرة والغيب والشهادة، وغير ذلك كثير.

وكذلك طرائق عرض الدوالّ المتقابلة متعددة أيضا فمنها ما يعرض ألفاظا متطابقات، أو معاني متقابلات، أو صورا متضادات أو موضوعات متقابلات، ومع هذه الأخيرة قد تجد حشدا مما يسبقها واقعا في طياتها متآزرا في تشكيلها، وهذا بيّن في شأن الصور الكثيرة الواردة في القرآن لكل من المؤمنين والكافرين، أو الأخيار والأشرار والدنيا والآخرة والجنة والنار وصفاً لعمل كل فريق منهما وبيانا لمآل كلٍ ومصيره ، وقد يُعبّر عن هذه الثنائيات بضرب مَثَل كالذي في سورة إبراهيم وسورة النحل وغيرهما، أو سوق قصة أمة من الأمم تفصيلا وصولا إلى مصير كل من الفريقين: المؤمنين

والكافرين، أو إجمالا لعدد من الأمم دون تحديد كما في كثير من المواضع في الكتاب الكريم.

وقد أشار بعض العلماء والمفسرين قديما إلى أن فاتحة الكتاب قد أجملت القرآن كله، وجاء ما بعدها منه تفصيلا لهذا المجمل، وهو ملمح جيد ، حبذا لو استهدوا به واستلهموه في درس الصور بالغة الكثرة التي حواها القرآن للبنية التقابلية للفريقين المذكورين على سبيل المقابلة في الشطر الأخير من الفاتحة، وهم: المُنعم عليهم المؤمنون الصالحون، والمغضوب عليهم من خلق الله، والتي فُصِّلت عشرات المرات فيما بعد بدءاً من صدر سورة البقرة وإلى آخر الكتاب الكريم، إلى هنا يبدو الأمر معتادا لكل ذي إدراك أو كالمعتاد، ولكن الأهم منه هو ما تمثله هذه التقنية في البناء الفني للنص وتكامله، وتحقيق الغاية من وراء تضمينها فيه، وهذا هو ما نجده فيما بين أيدينا هنا.

وعودا إلى سورة مريم نجد مصداق ذلك فيها ونجده أيضا يؤدي دوراً بالغ الأهمية والتأثير في إحكام بناء الصورة الكلية لبناء السورة موضوعيا وفنياً.

وكنا قد وصلنا فيما سبق من عرض سياق النص إلى ما أجمله من وصف مُركَّز لهؤلاء الرهط من الأنبياء والرسل الذين قدمهم النص مصحوبين بالأمر المتكرر بذكرهم في الكتاب، ثم نراه ينتقل نقلة موضوعية إلى من خَلَفوهم وأضاعوا وصاياهم وبددوا دينهم وحرفوه عن مواضعه في لفتة **تقابلية** لها دورها في إثارة حواس المتلقين كما هو الشأن في عرض الصور المتقابلة، وكشف عن مصيرهم الذي سيئولون إليه حيث قال ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ ومن الطبعي أن يجيء العطف في محله ليصل بدوره هذا

العنصر بما قبله واضعا أمام ناظرينا مجمل الصورة السيئة بإزاء مجمل الصورة المشرقة ليتبين للواحد منا ما بينهما من بعد سحيق، ويكون أول ما يشير إليه هو إضاعة الصلاة التي كان يلتزمها ويدعو إليها السابقون ويأمرون بها أتباعهم على النحو الذي مر بنا في وصف بعضهم، وفي أقوالهم، فيجيء الرابط مسترسلا سهلا يدركه كل أحد يعي أن الصلاة هي عماد الدين، وأس الدعوة لدى كل نبي، وكل من يتبع نبيا من أنبياء الله تعالى ورسول، فهي اعتراف عملي بفضل المنعم، وشكر له على ما أنعم وضراعة بطلب تمام الهداية والإنعام، ومن أضاع الصلاة فقد قصر في حق المنعم واستحق غضبة وتلقى وعيده، بأن يلقى **غيا** –أي عذابا شديدا –، ولقيا "غيٍّ" أطلق تنكيره العنان في تصوره إلى آماد لا منتهى لها تعددت الآراء فيه، وقد خلص ما بقي من السورة لهؤلاء وللتفرقة بينهم وبين الصالحين الذين حفظوا عهد الله وداوموا على اتباع أوامره طلبا لمرضاته، واجتناب نواهيه طمعا في عفوه ورحمته ومغفرته، وكانوا من الأوابين، وكما وضع السياق صورة الصالحين من أنبياء الله بإزاء صورة الطالحين فيما سبق، لم يغادرها حتى استثنى من آب وأناب وتاب، فذيل صورتهم بوضع صورة العابدين المنيبين على إثرها، وبيَّن ما يجزيهم الله به من المثوبة مسهبا فيه ليبين للمعاندين سوء ما ظلموا به أنفسهم باتباع الشهوات التي جلبت عليهم سوء العذاب، فأردفه بـ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا

﴿٦٣﴾ وهنا يعود السياق إلى ذكر **الرحمن** ورحمته بعد أن قطعه عمن يئسوا من رحمته، ويعود سيل الدوالِّ الرابطة مُحْكِمة البناء للتدفق من جديد ، فيكون أول ما يطالعنا منه رابط له دلالته على إحكام بناء السورة هو "سلام" في قوله ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾، وقد تقدم في ثلاثة مواضع من السورة هو رابعها ، أولها وُصِف به يحيى ﴿ **وَسَلَٰمٌ** عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾، والثاني على لسان عيسى ﴿ **وَٱلسَّلَٰمُ** عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾، وثالثها الذي توجه به إبراهيم لأبيه فيما تعرضنا له من قبل، وهو قوله ﴿ **سَلَٰمٌ** عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ .... ﴿٤٧﴾ ﴾، وهذا السلام له في ديننا دلالات لها شأن كبير ليس عند المسلمين وحدهم وإنما عند البشرية كلها، وقد ورد أن أول من ألقى السلام في الوجود الإنساني هو آدم في الجنة بتوقيف من ربه، ألقاه على نفر من الملائكة، وأنه لهذا صار التحية المختارة للمسلمين عندما يلقى أحدهم الآخر؛ لمعنى جليل لو وعاه البشر جميعا لما ارتضوا منه بديلا، ومعلوم أنه من الأسماء الحسنى المتقدمة فيها، ولكل ذلك كان إصرار القرآن على قرانه بالنبيين المعذبَيْن مع قومهما يحيى عليه السلام وعيسى عليه السلام، وتوجيه إبراهيم عليه السلام لإلقائه على أبيه في هذه السورة، وتوجيه المؤمنين من بعد ذلك إلى خطاب الجاهلين به، وأخيرا جعل تحية أهل الجنان "سلام"، فما أعظم السلام والإسلام ، وما أحكم ما أحكم الله به بناء هذه السورة.

ويلي هذا الرابط رابطٌ آخر فريد هو قوله "**بكرة وعشيا**"، وهو دالٌّ رابط بين هذا القول ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا **بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴿٦٢﴾ ﴾ وقوله في أوائلها ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن

سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ وهو رابط قوي بين مطلوب زكريا ممن آمن من قومه أن يسبحوا بحمد ربهم في هذين الوقتين من الصباح والمساء ولعله يعني: وما بينهما، ليكون الجزاء الأوفى في الجنة لمن امتثل وعمل به أن يأتيه رزقه **بكرة وعشيا**، أي وما بينهما، أو على الدوام في كل وقت باعتبار ما ورد من "أنه ليس في الجنة صباح ولا مساء فهي نور دائم ليس فيه ظل ولا حرور"، فإذا علمنا أن هذا التعبير لم يرد في القرآن كله إلا في هذين الموضعين من هذه السورة تأكد لدينا أنه دالٌّ مقصود للتنبيه على ارتباط مضامين السورة على نحو يعسر على غير الخالق أن يأتي بمثله، وتأكد لدينا أيضا مفهوم أن الجزاء من جنس العمل ، كالذي نراه في سورة السجدة من قوله تعالى ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ حيث جعل توفيتهم أجر عبادتهم الخالصة لله في الخفاء بعدما تنام العيون أن يكون جزاؤها أيضا في الخفاء لا تعلم نفس به لكونه خاصا بمن هذا شأنه ، وقوله "لا تعلم نفس" لعله كناية عن عظمه بالقدر الذي يصعب على أي إنسان تقديره أو الإحاطة به، فهذا من هذا والجزاء من جنس العمل، وهكذا كان جزاء العبادة الخالصة لله بكرة وعشيا في الدنيا رزقا ممتدا في الجنة بكرة وعشيا.

ويصحب هذا الرابط رابط آخر في التقوى ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ التي سبقت في موضعين: مع يحيى ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾ ومع مريم ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ وهو مثل سابقه لم يرد في القرآن كله بهذه

الصيغة سوى في هذه المواضع من سورة مريم، وهو تحقيق فريد للمعنى المنساب في السورة ليدل الناس على أن التقيَّ هو القريب من الله باعتبار أنه حريص على اتقاء غضبه وما يتبعه من عقاب، ولا يجوز في حقه الظن بالوقوع في معصية ربه؛ لذا نص على وصف يحيى بأنه كان "تقيا"، واستعاذة مريم بالرحمن ممن تمثل لها بشرا سويا مع تحفظها الدال عليه قولها "إن كنت تقيا"، على افتراض أنه إن لم يكن تقيا فسيكون لها عمل آخر يلجئها إليه سوء طويته ، فلما تبين لها إنه رسول من ربها هدأت نفسها إذ أدركت أنه ليس تقيا فحسب بل إنه رسول رب التقوى وعنوانها، وسنرى فيما بعد أن شرط التقوي ملازم لعمل الصالحين ومجازٌ لحسن الجزاء عليها وعلى حسن العمل والالتزام بها.

ويلي ذلك مباشرة قوله ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾، وهو خطاب مفاجئ على لسان طرف يُظن أنه غير وارد سلفا في سياق السورة وتعددت أراء المفسرين في توجيهه ، وفيه أطراف ثلاثة : أولها القائل، وثانيها الرب وثالثها الرسول المخاطب وهذان تضمنهما لفظ (ربك) فالرب هو الله والكاف للنبي ﷺ، وبصرف النظر عن تأويلات المفسرين، وبالرجوع في سياق السورة نجد أن صدرها يتضمن هذه الأطراف الثلاثة في قوله ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾ أولهم المتكلم قائل الجملة، وثانيها وثالثها عين من نص عليه السابق (ربك)، وبعد ذلك نجد رسول الوحي يكلم زكريا "يازكريا إنا نبشرك ..." ويجيبه بعدها عن تساؤله "قال كذلك قال ربك ..."، ثم نجده يظهر عيانا لمريم ولنا؛ فإذا هو جبريل " فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا

سويا"، ويخاطبها قائلا إنما أنا رسول ربك ، ويقول "كذلك قال ربك" وبهذا، ومن مجموع كل هذه الإشارات يتبين أن من قال "وما نتنزل ..." هو نفسه جبريل أو الملائكة الذين يقودهم، بالنظر إلى مجريات القصة كما وردت في آل عمران، حيث جاء النص بذكر رهط من الملائكة يخاطبون كلا من زكريا ومريم ، ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ آل عمران ، ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ .... ﴿٤٥﴾ ﴾ آل عمران؛ فليس مستنكرا بالمرة أن يكون قائل هذه العبارة "وما نتنزل" هو أو هم جبريل والملائكة، وهنا وقفة أخرى لا بد منها تميط اللبس عن سر مجيء هذه الآية في هذا الموضع من السورة وصلتها بما قبلها!، وبيان ذلك أن الغرائب التي وقعت فيما تقدم من سياق السورة فيما يتصل بيحيى وعيسى، ومخالفتها طبائع البشر تثير تساؤلا لدى السامع والقارئ عن هذا التصرف من الملائكة وما أقدموا عليه من عمل بالقول والفعل وما ترتب عليه، وكذلك ما بعده من المذكور من أمر الرسل كل ذلك يُقَصُّ على النبي أو يؤمر بذكره، فكان منطقيا أن يأتي هذا التعقيب على لسان الملائكة لبيان أن كل ما كان في هذا القصص بدءا من الأمر بالذكر ومرورا بسِيَر الأنبياء وما حواه من غرائب أنه من أمر الله، وكون نبينا ﷺ هو المخاطب لا غرابة فيه فهو المخاطب الرئيس في القرآن كله (وقد أحصيناه في جملة الخطابات فوجدناه الأكثر بامتياز، وله موضع آخر من الدراسة المزمع إنشاؤها) وهو كذلك في هذه السورة، ولو افترضنا أن الآمر بالذكر في كل ما سبق هو الله والمأمور هو جبريل تكون هذه الآية مما أمر بذكره تعقيبا عليه، وفي الحالة الأخرى إذا كان الآمر بالذكر هو جبريل والمأمور الرسول تكون معطوفة على ما

عُطِف عليه الأمر الأول بالذكر، وهو مقدر في أول السورة وتقديره: هذا ذكر رحمة ربك ... واذكر معه أو بعده ...، وقوله "بأمر ربك" وصف لكل ما سبق من أوامر بالذكر وغيره، والله أعلم، ولهذا التعبير نظير من الوضوح بمكان في سورة الصافات، التي جاء في أواخرها قوله "وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون ....." الذي يرتبط بأولها "والصافات صفا..."، وقد مررنا به في صدر هذه الوريقات.

أما ما في قولهم من الروابط المعينة على إكمال الصورة فمنه قوله " وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا " ، كأنه تعقيب على قول مريم ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾، وكأنه يقول لها إن كنت قد تضررت مما ألمَّ بك من المحنة حتى تمنيت أن تموتي وتكوني نسيا منسيا، فإن رعاية الله الذي لا يغفل ولا ينام هي التي تحيط بك وتحفظك، وإذا تمنيت أن تكوني نسيا في دنيا الناس، فما كان ربك لينساك، فالله لا يضل ولا ينسى، والتي بعدها "هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا" فهي تذكر بالسابقة التي وصف بها يحيى في بشرى أبيه ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ وهي خصيصة اختص بها يحيى أنه قد سُمِّي باسم لم يُسمَّ به أحد من قبل، وأن الله هو الذي سماه ؛ فكان الاسم نفسه بمعناه بشرى مضافة بأنه سوف يعيش حتى تقرَّ به أعين والديه، أما اسم الله المقصود في الآية التي معنا فقد اختلف فيه العلماء ، فمن قائل إنه مجاز في تفرده بالقدرة بلا نظير، ومن قائل إنه اسمه الأعظم، ومن قائل إنه "الله"، ومن قائل إنه "**الرحمن**"، وهو الذي أميل إليه لاختصاص السورة بما سبقت الإشارة إليه، بالرحمة من جهة، ومن كثرة ذكر اسم **الرحمن** فيها من جهة أخرى، وهو اسم اختص به نفسه ولا يسمى به غيره؛ فـ"**هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا** " ؟!، فإذا

علمنا أن هذا اللفظ "سَمِيًّا"لم يرد في شيء من القرآن غير هذا تبين لنا أنه مقصود للربط بين أطراف الصورة ، لاسيما فيما يكتنف التعبيرين الحاملين له من خصائص أسلوبية ، فالأول فيه دلالة الخصوصية التي ذكرناها، والأخير فيه هذا الاستفهام التقريري، الذي يتطلب من سامعه الإقرار بأن رب السماوات والأرض وما بينهما ليس كمثله شيء!، ولا ينالن من قيمة هذا الربط وهذه الدالَّة ما ورد من أسباب نزول لهذا المقطع من السورة.

ويجيء معطوفا على ذلك في التي تليها قوله ﴿ **و** يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ **أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا** ﴿٦٦﴾ ﴾ المعنى أن الإنسان المكابر المصرّ على الكفر بنعمة الله والتكذيب بكل ما دُعي إلى التصديق والإيمان به يقول هذه المقالة متعجبا مستنكرا بالرغم من كل ما تقدم في هذه لسورة من دلائل القدرة الإلهية، والوعد والوعيد والتحذير من مصائر المكذبين من الأمم السابقة، هذا هو مدلول تصدر **الواو** في هذه الآية؛ فقد أتت لإفادة معنى التعجيب والنعي على هؤلاء الذين ختم الكفر على قلوبهم وعقولهم فلم يعودوا يعقلون شيئا ولا يفقهون، وذلك على الرغم أيضا مما ضربه الله مثلا بيحيى وعيسى، وقد قال العلماء: إن هذه الواو استئنافية، مفصول ما بعدها عما قبلها لاختلاف المعنى، ولا أرى ذلك ؛ لأنهم نظروا إلى ما قبلها مباشرة، ولم ينظروا إلى تكامل النص، ولو نظروا لتبين لهم أن ما سبق في السورة من معان تحمل معنى التصديق بالبعث ، وتبين أن هذه **الواو** تحمل معنى الإنكار على هذا المكذب فيما يدّعيه بالرغم مما تقدم من أدلة ثبوته، والمعنى أنه يقول ذلك مع أن ما سبق مؤيد لضد ما يقول ، كقول من ينكر على أحد فعلا يأتيه: إنني قد أحسنت إليك بكذا وكذا **و** أنت تقدم على الإساءة إليّ لبئس ما تفعل، أو يقول له: إنني قد بينت لك أدلة صدق ما

أدعيه وصوابه **و** أنت ما زلت مصراً على تكذيبي فيه!، فهنا تُهِلُّ علينا الدالة المعنوية في المقابلة بين التصديق الذي وُصِف به السابقون والتكذيب الذي نجده من هذا "الإنسان"، فقوله "**أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**" يستحضر سوابقها في السورة ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ **وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** ﴿١٥﴾ ﴾ في وصف يحيى ، و﴿ **مَا دُمْتُ حَيًّا** ﴿٣١﴾ ﴾ و﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ **يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴿٣٣﴾ ﴾ على لسان عيسى، وليست هذه الدوال مجرد ر ابط لفظي أو دال يوجه إلى تكامل البناء وإحكامه بقدر ما هي دلالة على الدور الذي تنهض به **البنية التقابلية** في إبراز تباين المواقف في شأن مَن يُسْلِم وجهه لله ويُسَلِّم بكل ما أُخبِر به بلا لدد ولا جدال ولا شك ولا طلب إقامة حجة على صدق ما يطلب إليه التصديق به، والآخر الجاحد المستنكر المستكبر، ولولا تقارب الألفاظ والمعاني بين السابق واللاحق لما فهم هذا أو لتعسر إدراكه، وهذه هي وظيفة الدالَّةِ في بيان تكامل النص وإحكامه ، ومن لطائف هذا التعبير أنه عبّر عن تباين المواقف بين طرفي النقيض بالمغايرة بين اللفظ الدال على الفعل الذي يُسَلِّم به النّبِيّان يحيى وعيسى، واللفظ الذي دل به المنكر على ذات الفعل، فعبر عن الأول بـ(يُبْعَث/أُبْعَث) ، وعن الأخير بـ(أُخْرَج) لضعف مداركه وقصورها عن تصور عملية البعث، وما بينها وبين ما يحسبه هو "إخراج" جثمان بالٍ من قبره إلى الحياة ، كهذا الذي أمسك ببقايا عظم ميت وفركه قائلا "أيُحيي الله هذا بعدما أرى ؟" وإنما هي إعادة خلق ، لهذا جاء التعبير متباينا في قضية واحدة لتباين المواقف مع شدة الترابط الناتج عن بقية الدوالّ، وما أسرع ما يأتيه الجواب على سؤاله المستبعِد للبعث، جوابا مفحما ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ **أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا** ﴿٦٧﴾ ﴾ ليستحضر الآية المتصدرة في

قصة زكريا ﴿ ...وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾ ليدرك هذا الغِرُّ وندرك معه أن المثال المضروب بحالة زكريا ويحيى كان حريا بأن يقنعه ونحن معه بأن من خلقه وخلق الخلق جميعا قادر على أن يعيده كما بدأه أول مرة ، وهو أهون عليه، ولئن كان هذا المعنى قد ورد مرات في القرآن فإن هذا التركيب المتقارب **لم يَرِد في غير هذه السورة**، وهذا دليل على أنه مقصود ليقابل بين تكذيب هذا وتصديق من سبق ، وأن الترابط بين أجزاء الصورة في السورة هو من إحكام الله تعالى لآياته.

ومن هنا يبدأ تصوير مشهد القيامة والحساب والصراط والعذاب، وهو مشهد تم تصويره في القرآن مرات كثيرة وبصور متعددة، وكل منها له طابعه الذي يتم التشكيل به ليناسب المقام الذي يساق فيه، ويبدأ تشكيل الصورة هنا بتوكيد من الله أنه سوف يكون ، وهذا التوكيد بمثابة رد جازم على من أنكر البعث، وتتمة لما تقدم من دليل على أنه واقع لا محالة، وليس هذا فحسب بل سيتبعه حشر وحساب وثواب وعقاب، فالمكان الذي يتم فيه وقوع أحداث المشهد على شفير جهنم، ويتم تشكيل هذا المشهد تباعا من خلال مفردات متلاحقات وصورٍ أولها ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ فبعد أن حدد المكان حشر الناس جميعا وساقهم – أحضرهم – وأمرهم بالجلوس جثاة على الرُّكَب ترقبا للحكم عليهم وتشوفا خوفا وطمعا ، وتجيء كلمة "**عتيا**" هنا لتربطه بما تقدم في النص من قول زكريا ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ بجامع معنى مجاوزة الحد، حد الكبر في قول زكريا، وحد العصيان في الأخرى على سبيل التناهي والمبالغة في الموضعين كليهما، وهي صيغة لم ترد في القرآن كله في غير

هذين الموضعين من السورة، لتكون بمثابة دالّة لفظية تقرع الأسماع منبهة على تكامل بناء النص على الرغم من اختلاف مدلولها بين السياقين، وإلا ما كان لتفردها بالذكر مرتين في سورة واحدة مغزى.

ويستمر السياق في الحديث عن عقوبة المكذبين ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ فيجيء ضمير العظمة العائد على الله تعالى أو ضمير الجماعة العائد على الملائكة الموكلين بالعذاب ليقرع الأسماع من جديد بما يحمل من التهديد والوعيد ، ويقوم بالربط بما سبق في النص من قوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ليؤكد لنا مرة أخرى أن رب العزة سوف يبعثهم ويحاسبهم ويعاقبهم على ما يفترون وما به يكذِّبون ، وهو على ذلك قدير ، ومن رحمة الله بعباده المتقين أنه بدأ بما يطمئنهم يوم الحشر ؛ فعجَّل بإنجاء المؤمنين قبل إلقاء المجرمين في قعر الجحيم ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾، وبصرف النظر عما قيل في الضمير في (منكم) من شمول كل البشر في الورود أو تخصيص من سبق ذكرهم من المجرمين بالورود، يجيء هذا الاستثناء ليفصل بينهم وبين المتقين الذين نجاهم الله تعالى من محنة الصراط ، ويهوي الظالمون في جهنم **جثيا** ، وهنا دالَّتان ، أولاهما "مقضيا" التي سبقت في أمر عيسى ﴿ .... وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾وهو أمر قضاه الله تعالى في خلق عيسى على غير العادة لأم بلا أب، وقد كان، والحتم المقضي بأمر الله أن يعذب من كفر وأجرم ومات على ذلك، وعلى الرغم من اختلاف الحالين فإنهما اجتمعا على نفاذ أمر الله الذي تحقق أولا في أمر عيسى، ووجوب نفاذ الآخر وحتميته قياسا عليه، وهو غيب صدَّقه ما وقع في عالم الشهادة مع عيسى، فمجيء الدالة

التي لم ترد في غير هذين الموضعين يوجه السامع نحو عملية القياس والتصديق، والدالة الأخرى التي سبقت من قريب في قوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ التي فيها تصوير حال البشر جميعا يوم الحشر ، والأخيرة تأتي بعد الفصل بين المؤمنين الناجين والكفار المعذبين ، وهي أيضا لم ترد في القرآن في غير مريم ، فتأمل .

وعودا لتعزيز فكرة الثواب والعقاب يشرع النص المحكم في بيان سبب وقوع هؤلاء في جهنم دون الآخرين، وعطفا على صدر المقطع السابق "ويقول الإنسان" يستأنف البيان﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾، وتجيء الدَّالَّة هنا حاملة جملة موازية وبنية تقابلية في آن لهذه الآية مع قوله في حق مجموع الأنبياء والرسل السالف ذكره ﴿ ... إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾؛ فهذا التقابل كفيل بإبراز الصورة جلية شديدة الإقناع بالفارق بين الفصيلين الذي أوصل كلا منهما إلى ما نال من جزاء لعمله، ولا يتأتى تحقق هذا إلا بالبنية التقابلية في الصورة الكلية والتي جمعت المتضادين في سياق جامع بين أطراف السورة وأحكمت بناءها –لاسيما أن الأخيرة لم يذكر فيها اسم "الرحمن" ضنا عليهم بالرحمة– وقد تبين مدى تسطح فكر هؤلاء في تعليقهم على ما يسمعون من الآيات البينات التي تتلى عليهم فلا يفقهون منها شيئا، وهنا أيضا ذكر البينات ولم يذكرها مع السابقين؛ لأنهم آمنوا وعملوا بها مصدقين واعين، وهي عندهم بينة، أما هؤلاء فذكرها معهم تسفيها لهم؛ فمع هذا

الوضوح والبيان عميت أبصارهم، وجعلوا ينظرون لمن يتلو عليهم تلكم الآيات فيجدونه قد أضنى نفسه في العبادة وتزهد في الدنيا وتفرغ للدعوة وأداء أمانتها، وهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام، فيسخرون منه قائلين: انظر إلى ما أنت فيه من الضنى، وتأمل ما نحن فيه من النعيم، ألا ترانا أفضل منك وممن معك وأكثر قوةً وأموالاً وأولاداً ، فلا شك أننا على الحق وأنتم على الباطل، وسيكون لنا في الآخرة مثل هذا إذا كان ثمة آخرة ، فيجيء الرد عاجلا في الآية التي تليها، قائلة لهم إن كثيرا من الأمم قبلكم قد غرتهم زينة الحياة الدنيا فما أغنت عنهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، وتعزيزاً لبطلان دعواهم يجيء الأمر للنبي ﷺ بأن يبين لهم طرفا من حكمة الله تعالى في سياسة الناس ورحمته بهم إلا من أبى ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾ لأن الله تعالى يمهل الكافر حتى إذا أعذر إليه أملى له حتى إذا أخذه لم يُفلته، وهكذا الشأن مع من يتمادى في الغواية ولا يجدي معه النصح ومحاولة الإصلاح، فهؤلاء يَمُدُّهم الله في طغيانهم يعمهون، ومصيرهم معلوم، أما الذي صلح أو يرجى صلاحه فالله يزيده هدى لينال من فضل الله ورحمته المزيد.

ويتوجه الله تعالى من جديد لنبيّه ﷺ بخطاب يعرض فيه نموذجا آخر من العتاة ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ فهذا يعيد إلى الذاكرة تلطف زكريا في التضرع إلى ربه وهو يسترحمه ويشكو إليه ما انتهى إليه من الكِبَر والوحدة وخوف ضياع الأمانة من بعده ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى .... فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ

ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ ﴾؛ فجاءه من عاجل الاستجابة ما مر بنا آنفا، أما هذا فلا يعرف له ربا حتى يتألى عليه، بل أسند أمره إلى نفسه، وجعل قراره بيده في حزم وجزم دلت عليه صيغة التوكيد بكل أدواته المعروفة، والعجيب أنه قد جاءه من الآيات ما يُمْكِنُه أن يسترشد به في الدعاء والرجاء ، فجاءه الرد ﴿ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٧٨﴾ ... وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾ ﴾،"الغيب" هنا يمثل دالّة لها وقعها في مجريات السورة فقد سبق في قوله ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ... ﴿٦١﴾ ﴾ هكذا يبين لنا قضية من القضايا التي لا يتم إيمان المؤمن إلا بها ، قضية الإيمان بالغيب بدءا من الإيمان بالوحدانية التي أخذت حظها من السورة، وبقية الغيبيات التي منها الإيمان بالبعث الذي نال حظه منها أيضا، ويتبعه الحساب والعقاب والمصير إلى جنة للمتقين والنار للكافرين والعصاة، وكلٌ أخذ بنصيبه من السورة ، وهنا جاءت الجنة وعدا للعباد الصالحين كما النار لغيرهم، فإذا ما جئنا إلى هذا الجاحد وجدناه محل الاستهجان والتأنيب والتقريع على ما جزم بأنه سيؤتاه من الخير، فكان من ذلك الاستفهام التوبيخي "أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ"، وبهذا يُواجَه بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، وهو الذي يعطي ويمنع ، وقد منح الجنة للمتقين في الموضع الأول، والنار لأمثال هذا في الأخير.

وقوله "وَنَرِثُهُۥ" في الآية، أي نجعل قوله هذا هو الميراث الذي يبقى له فيما كتب عليه ﴿ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ ..... ﴿٧٩﴾ ﴾، و"وَنَرِثُهُۥ" على هذا فيه لطيفتان ؛ أولاهما الربط المعنوي بما ورد في دعوة زكريا "فَهَبۡ لِي مِن

لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي"، والأخرى أنه لن يجد له وارثا في الدنيا كما ادعى بل إنه سوف يرث في الآخرة وارثا، أو ميراثا آخر هو جزاء ما كُتب من قوله المتقدم؛ وهو سبب العذاب المدخر له، وتلك عاقبة الكِبْر والجبروت التي صورتها هذه الصورة التي ترتعد منها الأبدان، وورد الميراث كما ورد الميراث فيما سبق مرتين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ و﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾، فأولاهما تشير إلى أن الوارث الحق لكل ما في الوجود هو الله تعالى الذي يهب ما يشاء لمن يشاء ، وفي التي بعدها يبين أنه يورث الجنة الأتقياء من عباده، فكانت **بنية التقابل** هنا أن هذا الجاحد قد **جعل** الله ميراثه ناراً، وكل هذا مما يملك الله القدرة على حيازته وقسمة ما يشاء منه بين خلقه، ولكلٍ ما يكافئ ما قدم بين يديه من عمل في الدنيا، وهذه المنظومة من الدوالِّ أدت إلى تلك النتيجة التي انتهى إليها موقف كل فريق.

ولا يلبث النص أن يعطف على النماذج السابقة نموذجا آخر مكملا لها، ولهذا الأخير خاصة فيقول ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ وهنا يعود بما يأتي على ما سبق من قوله ﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ ... ﴿٧٩﴾ ﴾، فيقول ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾، "كَلَّا" هذه لها شأن في القرآن يستحق التأمل ، فهي هنا ليست مجرد دالٍّ من الدوالِّ يربط بين موضعين متقاربين مكانا في السورة، بل إن موضعها هنا هو أول موضع من القرآن ترد فيه بحسب ترتيب المصحف، ولم ترد في المدني قط، وهي كما قال العلماء حرف رَدْعٍ وزجر، وتأتي عادة في الرد على قول باطل شديد الخطأ يقوله من لا يدري حقيقة

ما يقول ومغبته، و ورودها في المكي سببه ما كان عليه كفار مكة من عنت وجبروت في مواجهة الدعوة وعليه يقاس غيره بطبيعة الحال، ولعل هذا هو سبب خلو المدني منها، وهي هنا في مريم ترد كما هو بيِّن في الرد على أمرين بلغا الغاية في الجهالة والتنكر لفضل الله وإنعامه على خلقه.

ويُستأنف السياق الموجه بالخطاب إلى النبي ﷺ ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ ﴾، هذا عائد في المعنى على ما سبق مـــــرتين: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ ....﴿٧٥﴾ ﴾و﴿ .... وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ ﴾، وهو بيان لأسلوب المدِّ، بمعنى أن الله تعالى لِمَا رأى من تماديهم في الكفر والعصيان أرسل عليهم الشياطين توسوس لهم وتَعِدهم وتُمَنِّيهم حتى يظلوا سادرين في غوايتهم ليزدادوا عذابا يوم القيامة بما جنوا من عظائم المعاصي، وعليه فالمعنى في قوله "وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا" أي من موجبات العذاب التي تؤدي به إليه، فاستعاض بالمُسبَّب عن السبب أو أضمر السبب، أو أنه من قبيل التسوية بين ما سبق من مدّ في الدنيا وما يلقاه من الجزاء غي الآخرة ، وهذا كله من دلائل إحكام البناء.

أما الشيطان فقد ورد خمس مرات في السورة، ثلاث منها في خبر إبراهيم ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ والرابعة ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ﴾، والأخيرة هنا في قوله ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ ﴾ ،

ومن اللطائف أن إبراهيم في قوله السابق قد واطأ معنى المدِّ وطريقته، موضحا أن أباه إذا تمادى في الكفر فإن الله تعالى سوف يعاقبه دون أن يدري بأن يسلط عليه الشيطان فيصبح من أوليائه، وهذا عين ما سبق بيانه قبل قليل ومرتبط به، ومن لطائف التعبير أيضا أنه جعل العذاب مساً، فكيف بما فوق المس!، ثم يجيء الرابع بما يبهت أولياء الشيطان إذ يفاجئهم بوجوده معهم في الحشر حول جهنم، وبالأخير تكتمل المنظومة الشيطانية التي يتوسطها مصير الشيطان مع أوليائه ، ويحيط بها من طرفيها عمله في بني الإنسان!، وبكل ما سبق من العِبَر يعلل الله تعالى نبيَّه ويهون عليه ما يلقاه من عنت المكذبين ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾ ﴾، وهو مطابق لمعنى قوله السابق "كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ"، ويستمر السياق في بيان مآلهم ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ ﴾، وأول ما يلقانا منه **الحشر** الذي ذكر فيما سبق في قوله " فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ " وهما موضعان لمعنيين متقابلين شديدي البعد، بعد ما بين الخير والشر، وما بين النعيم والجحيم، والحشر في ذاته وكذلك السَّوْق لا يحملان دلالة على ما يجاوز معناهما اللغوي على الرغم من وصف وفد المتقين بالحشر والمجرمين بالسوق هنا، فكل يحشر وكل يساق بدليل ما ورد في الزمر في وصفهم، وإن كان أكثر ما ورد في الحشر للأشرار، وكثير منه أيضا في الطرفين، ومعهم أيضا حشر كل الكائنات، ولكن العبرة بما إليه يحشرون ويساقون، والذي معنا هنا كان في الموضع الأول لحشر الجميع، ثم نجَّى من بينهم المتقين وأزلف الآخرين في قعر جهنم جثاة كما حُشروا ، أما في الموضع الآخر فقد فصل بينهما ،

وجعل المتقين وفدا محفوفا بالحفاوة والتكريم، وساق الآخرين إلى جهنم مذمومين مدحورين.

وشفع ذلك كله برابط سياقي يحمل دالَّة رابطه في جملة تكررت هنا ،لم يرد لها نظير في القرآن كله، أولهما " أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا " ٧٨ والآخر "لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا" ٨٧ ، والبنية التي بُنيا عليها **تقابلية** كما هو بيّن من السياق؛ فالأول من المستكبرين الذين استحقوا أن يتهكم القرآن بهم فجاء التهكم في صورة استفهام له مغزى استنكاري توبيخي يليق بالرد على مثله، أما الثاني فقد وصف أصحاب الشفاعة المقبولة عند الله تعالى الذين مَنَّ الله عليهم بهذه المنة العظمى يوم لا تملك نفس لنفس شيئا.

وفي إضافة لما سبق ينعطف السياق على قضية رئيسة في السورة هي قضية منزلة عيسى بين الرسالة، والادعاء بألوهيته التي افتراها الأحزاب من بعده، فاستأنف عطفا على المقاطع السابقة ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ بعد أن كان فيما سبق قد بيَّن موقف عيسى بعد أن استرد مقادة الخطاب منه ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ وأرجعه بعدها إليه ليقرر ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾، وبعد كل ذلك أصرَّ النصارى على ما هم عليه ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ ﴾، ولهذا ضمهم في السياق إلى جملة من يسوق مواقفهم من المكذبين ، فبدأ هذه الآية بالعطف على ما سبق من هذه المواقف، ولأجل أن يبين عِظَم هذه الفرية تحول بالأسلوب إلى منحى شديد الأسر والمهابة حتى لتقشعر منه الجلود؛ عبر عنه بلفظ فريد لم

يرد في غير هذا الموضع وهو " **إِدًّا** " ليناسب هول ما قالوا افتراء عليه ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾، وبهذا تكون هذه القضية قد حسمت عندنا نحن المسلمين ، فهل حسمت عند غيرنا!؟ .

فلينظر كل أحد من البشر ممن ذُكِروا في هذه السياحة بين طوائف المكذبين ما سوف تختم به هذه الصورة في بناء السورة، وفي هذا التعقيب القاطع الذي ذيَّلها الله به ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾، وهكذا مع اقتراب السورة من نهايتها تتكثف الدوال الرابطة المحكِمة لبنائها ، وأولها " **إِن كُلُّ مَن** "... **إِلَّآ ءَاتِى** " التي تربط هذا المعنى بسابقه " **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا** وَارِدُهَا "، وثانيتها"**آتي/آتيه**" التي تشتبك مع العديد من المواضع السابقة منها المناظرة "أسمع بهم وأبصر يوم **يأتوننا**"، "إنه كان وعده **مأتيا**"، "**يأتينا** فردا" "**آتي** الرحمن عبدا"، "**آتيه** يوم القيامة فردا"، ومنها المقابلة "و**آتيناه** الحكم صبيا" ، "**آتاني** الكتاب"، "**لأوتين** مالا وولدا"، وهذه الأخيرة ليست مما يقع تحت السياق الذي معنا لأن قول المعاند "لأوتين" فيه مغالطة منه لأن الذي في نفسه أنه بما هو عليه من قوة وبأس وحذق ومهارة سيكتسب المال وكثرة العيال وليس في نفسه ما قد يظن الظّانّ أنه يعني أن الله تعالى سوف يؤتيه ذلك، لذا أحسب أن السياق هنا بني على المشاكلة بتغيير اللفظ ليساوق ما عليه الشأن في الإيتاء، وهو على كلٍ داخلٌ في جملة الدوالِّ الموصوفة هنا، واللتان قبلها وصفناهما بأنهما مما بني على التقابل فعلى معنى أن ما يؤتَيانه – أي يحيى وعيسى– هو منحة من الله آتاهما إياها؛

فالأول أوتي الحكم، والغالب أنه الحكمة لا النبوة لأنه ما زال صبيا، والثاني "أوتي" الكتاب، أي الإنجيل، (وقد يقال إنه أخبر وهو في مهده أنه جُعِل نبيا فعلام يمتنع أن يكون يحيى في صباه نبيا كما وصفت؟ والرد على ذلك أن عيسى لما قال ذلك لم يَعن أنه في مهده جُعل نبيا، وإنما أنطقه الله به ليصف ما سيكون عليه في المستقبل، على سبيل النبوءة المعجزة حال نطقه بها في مهده، ومعلوم أنه أوتي النبوة وهو ابن ثلاثين فيما ذكر بعض المؤرخين وأصحاب السير)، وعلى كل فالمعنى الذي عليه الموضعان أنه إيتاء أي إعطاء وفاعله هو الله تعالى، أما المواضع الخمسة المناظرة فالآتي أي الفاعل هو من سيقدم على الحساب مرغما، فهو في الحقيقة ليس آتيا بإرادته حتى الذين اتقوا لأنهم مجلوبون جلبا ومحشورون حشرا ومسوقون سوقا، ولكن السياق العجيب أخفى كل ذلك وراء لفظ الإتيان ليكون في معنى ما يقوله الناس لمن ينفر عمن يحتاج إليه: غدا تأتيني (أو كما يقول العامة: بكرة تجيني، مع الاعتذار للغتنا الحبيبة)، والذي يتضح من مساق هذه المتناظرات في مواضعها من السياق أنها جمعتها رابطة بين كل المقامات التي وردت فيها لتسهم في إحكام بناء السورة.

وثالثة هذه الدوالِّ هي "**عدًّا** " في قوله " لقد أحصاهم **وعدهم عدا**" التي تتساوق مع قوله ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا **نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا** ﴿٨٤﴾ ﴾ فالتركيب متقارب والمعنى يفترق افتراقا يسيرا؛ ففي التي سبقت يتسلط العدُّ على ما يقترفونه من البلايا والموبقات، وفي هذه يتسلط الإحصاء والعدُّ على المخلوقات كلها التي تحشر يوم القيامة لا ينقص منها مخلوق خُلق إلى يوم الحساب، وتأتي دالَّة أخرى رابطة بالمقطع قبل الأخير هي "**فردا**" في قوله " وَكُلُّهُمۡ **ءَاتِيهِ** يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ **فَرۡدًا** " لتعود على قوله الآنف ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ

﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾، ليعلم كل أحد من البشر أنه سيأتي عليه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون؛ لاسيما من كان كهذا الذي تألَّى على الله، وكان من الرد عليه القول السابق، ولعل هذه الدالّة"فردا"تستدعي إلى ذهن السامع الواعي قول زكريا الآخر ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ الأنبياء، ليكون حاضرا في السياق حضورا ذهنيا وإن لم يكن في السورة ليستشعر هذا السامع معنى الوحدة والانفراد وقسوتها في الدنيا والآخرة.

ومعلوم أنه لما كانت هذه الآيات الثلاث قد جاءت عقب ردّه على دعواهم في قوله " وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾" ومكملة له يصبح المقصود بها أن عيسى ممن سيأتي الرحمن عبداً ، ويأتيه فرداً كذلك .

ويترتب على ما تقدم أن يكون كل الخلق وما عملوه محشورين محسوبا عليهم كل كبيرة وصغيرة ؛ وبهذا تكون الآيتان مُوئِستيْن كل مخلوق مِن توهُّم الإفلات من الحساب والعقاب ، والثواب كذلك ، ولا يظلم ربك أحدا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

ويعود السياق لخطاب الرسول، وإن كان الخطاب لم ينقطع وإنما تخلله ما يشبه الاستطراد في قضية عيسى، فيجمع محصلة كل ما سبق من أوامر وخطاب ، عاطفا إياها هذه المرة بالفاء السببية على الخطاب السابق "فلا تعجل عليهم" فيقول ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

هذا الختام الجامع لمحصلة كل ما عرضته السورة من صور المصدقين من أنبياء ومؤمنين، ومن مكذبين معاندين، وما نال كل فريق

منهم من الجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وفيه من الروابط "تبشر" التي تلتحم مع صدر السورة في قصة زكريا "إنا **نبشرك** بغلام"، و"المتقين" وقد سبق إيراد هذا الرابط في ثلاثة مواضع ورد فيها الوصف "**تقيا**" في شأن يحيى (١٣)، والملَك (١٨) وأصحاب الجنة (٦٣)، وهذا عائد على الجميع مضافا إليهم وصف الذين "**اتقوا**" في قوله "ثم ننجي الذين **اتقوا**"(٧٢)، ثم وصف "**المتقين**" في قوله "يوم نحشر **المتقين** إلى الرحمن وفدا"، وهذا الذي معنا فيه الصيغة ذاتها "لتبشر به **المتقين**"، وأخيرا يأتي رابط ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ** هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ الذي يرتبط بسابقه ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ** هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ولعله يكون موجها للفئة الأخيرة التي تمادت في الغي من المشركين الذين افتروا على الله وادعوا لع ولدا بكل طوائفها التي قالت بالبنات أو النصارى أو مؤلهي العزير، دون تعارض مع احتمال قصد أصحاب اللدد من مشركين وكفار.

* * *

بناء السورة

ولننظر الآن في ضوء ما تقدم كيف بدا بناء الصورة الكلية لهذه السورة وكيف تحقق إحكام بنائها على النحو الذي يبرزه هذا السياق في عناصر مجتمعة تشكلت منها صورة كلية هي بنية السورة التي استُهلت بالحروف المقطعة التي حار فيها المفسرون وقالوا فيها الكثير مما اجتهدوا فيه أو مما نسب إلى بعض السلف ونهم صحابة، ونُقلت فيها آثار وأخبار لم تصل فيها إلى قول ينطبق على سائر ما استهلت به السور ذوات الحروف المقطعة، وقد ذهب بعضهم إلى أن لها نظائر في الكتب السماوية الأخرى، وأن لها معاني في العبرية أو غيرها، ومنهم من ربطها بحساب الجُمَّل، ولعلي لا أكون متجاوزاً إن حاولت الإدلاء ببعض الخواطر حول شيء من هذه الحروف التي اجتهدت في أمرها بعض الشيء لسنين، ولم أظفر إلا بالقليل الذي أعترف بأنه كغيره من الاجتهادات السابقة لا يمثل نهجا مطردا في تفسيرها يمكن تطبيقه على سائرها، فمما لاحظته أن الحرف **(ن "نون")** الذي تصدر سورة القلم يمكن إن يكون مرادفا للفظ النون أي الحوت، وقد ورد في السورة قوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ ﴾، فهذا ربما يكون مؤشرا على صلة ذات خصوصية بين "نون" بهذا النطق كما يؤديه القارئ والنون بمعنى الحوت بحكم أن يونس لقِّب بـ"**ذي النون**"، وربما تكون هناك علاقة من نوعٍ ما جامعةٍ بين هذه النون و لفظ "**مجنون**" الذي أحاط بالسورة من أولها وآخرها بمثابة دالَّة في إحكام بنائها وتلاحم أطرافها، ولولا مخافة شبهة

الخوض فيما قد ينسب إلى العبث لأشرت إلى كلمات أخرى في السورة حَوَت هذا المقطع الصوتي الذي حوته الكلمة السابقة، وثمة محاولات أخرى لا يفيد التطرق إليها هنا في كثير أو قليل، غير أن في حروف سورة مريم ملمحا لست واثقا منه أيضا للسبب المذكور في السابق، ولأنه ليس خاصا بها وحدها بل يتصل أيضا بالسورة التي قبلها (الكهف)، على الرغم مما يشير إليه كثير من الدارسين من التكامل والتواصل بين السور المتعاقبة في الترتيب المصحفي وله ظواهره التي لا تخفى، والخلاصة أن الحرفين الأولين من "كهيعص" وهما الكاف والهاء هما ثلثا كلمة "**كهف**"، ولعلهما إشارة إلى ما بين السورتين من ترابط موضوعي أشار إليه عدد من العلماء في تفاسيرهم وكتبهم والبقاعي والفيروزبادي منهم ، والحروف الثلاثة الباقية لعل لها صلة بهذا أو بسورة مريم نفسها، ولعل نظيرا آخر من هذه الحروف يوجه إلى وضع مثل هذا الاحتمال في محل العناية والنظر، وهو ورود سورة "**ص**" بعد "**الصافات**" ؛ فلعله هو الآخر ينبه على الصلة التي بين السورتين، كما أن حرف "**ن/النون**" المشار إليه سلفا في صدر سورة القلم، يؤشر بإصبع آخر إلى ما بينها وبين **تبارك**"**الملك**" من صلة، ولكن من خلال التقاء الحرف الأخير من الملك مع هذه النون في قوله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ ، وهي كذلك عند من لا يعد البسملة آية في أوائل السور عدا الفاتحة، وكل هذا غير مطرد في هذه السور ذوات الحروف المقطعة ، ولكنه قد يوجه إلى ملمح لا أعلم أحدا من العلماء قد التفت إليه، وهو احتمال كون هذه الحروف **تحمل نوعا ما من دلائل الاتصال بين السور في الترتيب المصحفي**، أي السورة التي تحمل الحروف المقطعة مع السورة التي قبلها، فإذا ثبتت بالدرس

والتعقب صحة ذلك تكون من أدلة أن الترتيب توقيفي، وأنه كان هكذا من قديم قبل نزوله وتنجيمه، هذا إن ثبت يدحض كثيرا ترهات المستشرقين وأشياعهم حول القرآن، ولعل لها في كل ذلك أسرارا غير ذلك ما زالت تخفى علينا، ولا نرى بأسا في الاعتراف بهذا، وفوق كل ذي علم عليم.

ومهما يكن الأمر فبين أيدينا عوامل عدة تآزرت في تشكيل بناء السورة، منها الدوالُّ الرابطة من فرائد وغيرها مما تقدم بيانه، ومنها إيقاع الفواصل الذي منح السورة طابعا منمازا، ومنها الخطاب، والسورة كلها **خطاب** توجه به الله تعالى للنبي ﷺ الأمر الذي تدل عليه ضمائر الخطاب من أول السورة "رحمة **ربك**" وآخرها (**بلسانك**، **تبشر**، **تنذر**، **تحس**، **تسمع**)، وفيما بين أولها وآخرها على مدار السورة لم يدع خطابه في صدر كل مقطع منها في قسمها الأول بالدالّة الرئيسة (**اذكر**) التي يلحظ أنها حلت محل لفظة "قُل" التي لم ترد إلا مرة واحدة ، والتي تكثر في غيرها (في أكثر من ثلاثمائة موضع)، وفي ثنايا السورة (**أنذرهم**، بأمر **ربك**، **ربك** نسيا، **فاعبده** و**اصطبر**، **تعلم** ، **فوربك**، على **ربك** حتما، **قل**، عند **ربك**، **أفرأيت**، ألم **تر**، فلا **تعجل**) وليس انتشار خطاب الرسول بأدواته مما اختصت مريم وحدها ، بل إنه هو **المخاطب الرئيس في القرآن**، ودلائله مبسوطة في القرآن كله من أوله إلى آخره بدءا من أول سورة البقرة (آية ٤) وإلى سورة الناس (وحَصْرُ كلِ الخطابات مُدَّخرٌ عندي لحينه)، وهذا أول ما يُلمَح **من دلائل إحكام السورة ووحدة بنائها**.

* * *

وانقسمت السورة بعد التقدمة قسمين :

أولهما (إلى الآية ٥٨) توفر على سرد قصص بعض الأنبياء والرسل مستهلا إياه بقصص آخر أنبياء بني إسرائيل في بنية متصل بعضها ببعض ، ليس فقط لكونهم من آل بيت واحد، ولا لكونهم متعاصرين، ولا لأنهم في مكان واحد، ولا لأن مدعويهم أمة واحدة؛ بل أيضا –وهو الأهم– لأن دعوتهم واحدة، ولأنهم كُذِّبوا ، ولأنهم عُذِّبوا، ولأنهم قُتل منهم اثنان، ونجا الثالث بعصمة الله الذي رفعه إليه، ولولا ذلك لَلَحِق بسابقَيْه، ولعل هذا ما استدعى ذكرهم هنا مجتمعين تنديدا ببني إسرائيل قتلة الأنبياء، وفي ثنايا هذا العرض يجري ذكر عدد من المعجزات التي كانت حَرِيَّة بجذب كل من عايشها إلى اتِّباع دعوة هؤلاء النفر من الأنبياء، غير أن النص يختم ذكرهم ببيان أنهم على العكس من ذلك كُذبوا من قِبَل غالبية معاصريهم ، ووقع من اتبعوا آخرهم وهو عيسى عليه السلام فيما لا يقل سوءا ولا افتراء ولا جُرما عما أقدم عليه المكذبون ؛ ذلك أنهم رفعوا المسيح إلى مرتبة الألوهية، وادعوا أنه ابن الله؛ فكان عرض هذه القضية وتفنيدها شطرا من القسم الثاني من السورة، كما سنرى، مكملا لما قدمه النص من تفنيد وتهديد ووعيد في القسم الأول في تعقيب على قصة عيسى قبل الشروع في ذكر بقية الأنبياء المختارين للذكر في السورة لأسباب تتصل بالموضوع الرئيس وسياق السورة.

وقد ظهر من خلال تتبع السياق في هذا الجزء من السورة مدى ترابط أحداثه وتعاقبها ووضوحها، على ما هي عليه من اختزال وقفز فوق رءوس الأحداث ، كما في النقلة المفاجئة من إيحاء زكريا لقومه إلى الخطاب الموجه إلى يحيى (١١، ١٢)، وفي النقلة ما بين انتهاء مجاوبة الملَك لمريم، ووصفها وقد حملته –أي عيسى–، فإذا التفتنا للشخصيات

وجدناها تتمثل في زكريا، وأمين الوحي، ويحيى، وعيسى، أما السيدة مريم فقد وضعها السياق في بؤرة الحدث وصور معاناتها في محنتها التي تمخضت عن معجزة كلام طفلها في مهده.

هنا نتطرق إلى استطراد لا مفر منه لاتصاله بخصيصة مهمة في كينونة القرآن، وهي أن القرآن في اتصال بعضه ببعض نجد فيه بعض ما نزل سابقا يحيل على ما نزل لاحقا، ونجدهما في ترتيب المصحف على غير ذلك ؛ فنجد الإحالة تعود على المقدم ترتيبا وإن كان نزوله لاحقا، وعلى الرغم من عدم شيوع هذا بين غير المتخصصين نجد من العلماء من ذكر نماذج له كالفيروزبادي في البصائر، وسيد قطب والصادق عرجون من المحدثين، وهنا نجد أن قصة مريم في هذه السورة المكية قد بدأت من مرحلة شبابها اعتمادا على ما ورد في آل عمران المدنية من خبر مولدها وتنشئتها، وهذا من أدلة أن القرآن كان قديما في عالم الغيب ، وأن نزوله منجما لم يحل دون ترتيبه توقيفا كما كان في السماء، وقد يقع غير ذلك في بعض السور، فيسبق الإجمال ويأتي بعده التفصيل، وفي قصة موسى وقع كل ذلك.

كما أن حديث عيسى المعجز حمل بشارات عديدة تحققت فيما بعد على مَرِّ السنين، و أثبت أيضا براءة أمه مما رميت به، وأعقبه بإيجاز بليغ وصف ما اجترأ عليه بنو إسرائيل من تكذيب ، ومن مبالغات، وكما ذكرنا لم يغادر النص هذا الطرف من القصص حتى وفّى عُبّاد الصليب حقهم من التعرية والتوبيخ والتفنيد والتهديد حتى انتهى إلى وصف ما حل بهم إلى سوء المصير.

ومن أهم ما يُلحظ من إحكام بناء السورة الدور الذي قامت به **(الواو)** العاطفة من عمل لا يكاد يشعر به المتلقي –على أهميته–؛ فمن

أول موضع لها في صدارة مقاطع السورة وهي تمثل الجندي المجهول في ترابط البناء، وفي القسم الأول بدأت عملها في بداية المقطع الخاص بمريم "واذكر في الكتاب مريم"، والعطف هنا على ما دل عليه قوله في صدر السورة "ذكر رحمة ربك"، وفي نهاية المقطع بعدما أعطى المكذبين من بني إسرائيل والمفترين أيضا نصيبهم من غضبه جاء بخطاب وجهه للنبي "وأنذرهم" لا على أن الأمر موجه له لينذر بني إسرائيل أو أهل الكتاب بل لينذر من أُمِر هو بدعوتهم من بدء بعثته إلى ما شاء الله بما قد يحل بهم من غضب الله إن هم فعلوا مثل ما فعل من سبق ذكرهم من العصاة، وأيضا ممن سيأتي ذكرهم بعد، وعلى ذلك يكون لفظ "وأنذرهم" معطوفا على "واذكر" السابقة "واذكر" التي بعدها معطوفة عليها، والتاليات كذلك، **على معنى مجمل:**

هذا ذكر زكريا ....، واذكر مريم في القرآن ليتعظ الناس،...، واذكر لهم إبراهيم، واذكر موسى وهارون، واذكر إسماعيل، واذكر إدريس ، فهؤلاء وغيرهم من الأنبياء هم من أرسلهم الله من قبل لهداية الناس ، فمن أمن بهم نجا، ومن عصاهم عُذِّب، وأنذرهم سوء العاقبة إن كذبوا كما كذب الذين سبق ذكرهم ، وحشو هذا التسلسل هو المضامين التي يراد إيصالها للمدعوين، ولولا هذه الواو لحدثت فجوة في النص، و لها دور مماثل في الشق الثاني من السورة كما سنرى.

ولما أخذ السياق في أمر الأنبياء من لدن إبراهيم وقف وقفة لها مغزى يستحق التأمل في قصته، وقد سبق أن ذكرنا أن هذه السورة مفعمة بالرحمة وقد عرضت لرحمة الرحمن بعباده عامة والمرسلين خاصة، وعرضت للرحمة بالآباء والأمهات، وها هنا تعرض لرحمة الأبناء بالآباء، فتوقفت عند مشهد المحاورة بين إبراهيم وأبيه ، فضعفُ إبراهيم أمام الأبوّة بدأ بتمني نجاة

أبيه من مغبة التكذيب والكفر، وانتهى إلى قوله ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ ﴾ مؤثرا أباه الكافر بالدعاء له على ادخاره نفسه كعيسى، جاء هذا متمما لما بدا من ضعف زكريا الذي ظهر في استرحامه ربه طلبا للولد، وضعف مريم وحيرتها وحفاظها على حملها وولدها رضا بقضاء الله ورحمة بوليدها، ولو وقعت غيرها في مثل هذا الموقف لما ترددت في التخلص منه، ولم تتخل رحمة الله عن الجميع في كل مواقفهم، وأعطت كل من سأل سؤله، أما إبراهيم نفسه فانتقلت الرحمة من تحقيق ما طلبه لأبيه إلى تحقيق أمنية له أسرها في نفسه ولم يبدها، وهي طلب الذرية، ولكن الله الذي هو أعلم به من نفسه، لما أنفذ قضاءه في أبيه أعطاه عوضا عن ذلك من الذرية ما لم يكن يخطر له ببال، ولم يتوقف عطاؤه عند ذلك بل أتم نعمته عليه بهبة الرحمة لهذه الذرية والنبوة كذلك ليتم نعمته عليه، وكذلك موسى في المقطع التالي لم تفارقه رحمة ربه فيما عانى من تبعات الابتلاء والتكليفات الربانية فوهبه ربه من رحمته أخاه هارون نبيا، وكذلك الحال مع إسماعيل وإدريس حتى أفضى إلى ختام جامع لكل من أمر رسوله ﷺ بذكرهم ، ومن لم يأمره إجمالاً فقال ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ٥٨ ﴾ وهنا نراه يدرج الأنبياء والرسل جميعا في ذرية آدم ، وهو أمر مسَلَّم به، وذرية إبراهيم تحقيقا لوعده استجابة لدعوته ، فلما ذكر نوحا قال "وممن حملنا مع نوح" ولم يقل ذرية نوح في تكذيب واضح لادعاء من ادعى انحصار النسل في أبنائه (وقد جرت مناقشة كل الاحتمالات والتأويلات في نسل نوح في كتاب "العروبية" دحضا للإسرائيليات) ، فكل هؤلاء ومن تبعهم

من المؤمنين الذين كانت آيات الرحمن تتلى عليهم يخرون ساجدين تصديقا بها وإيمانا وامتثالا وخشوعا وطلبا لمرضاة الله ورحمته واتقاء لغضبه ، ولم يكونوا كمن سيأتي ذكرهم فيما بعد ممن يستكبرون عن عبادته ولا يؤمنون بآياته إذا تليت عليهم ويظنون أنهم في مأمن من عذابه بما أوتوا من نعيم الدنيا، وهؤلاء هم من سيفرد لهم القسم الثاني من السورة حديثا عاما لكل من كفر بالله أو أشرك في عبادته.

* * *

و**القسم الثاني** يبدأ بوصف من جاء من بعد عصر النبوات المتعاقبة والمتعاصرة وصفا مجملا ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ ، ومن المهم التنبه إلى الرابط الذي يربط بين قسمي السورة هنا ، ويتمثل في "**الفاء**" بطبيعة الحال وفي الضمير "**بَعۡدِهِمۡ**" العائد على المذكورين في خاتمة القسم الأول من النبيين ومن تبعهم بإحسان ، فإذا تبين أن هذا الخَلْف هو موضوع ما بقي من السورة تأكد لدينا وحدة بناء السورة وإحكامه وتكامله، وهذا ما سيسفر عنه ما يلي.

هذا الوصف "**خَلْفٌ** ...." يحمل تأويلات عدة بحكم مجيئه عقب الحديث عن مجمل النبوات ، فيجوز أن يكون المقصود به كل من فرط في أمر الدين من أتباع كل الأنبياء وهم صنوف وألوان من الخلف المخالفين، أو يخص الذين تبعوا عيسى ثم ضلوا السبيل بادعاء ألوهيته وعدوه ابنا لله، والذي نراه أنه قد عددهم جميعا أولا (إلى ٨٧) بمن فيهم من كذبوا الرسول ﷺ ، ثم خص الذين أشركوا لله في ملكه ولدا أو بنات بحديث ذي وخز أليم لمن كان يحس أو يعي أو يعقل ، وكل هؤلاء وأولئك من الفئات مستثنى منهم من تاب وآمن وعمل صالحا فلهم حسن العاقبة في جنات النعيم التي

أفاضت في وصفها الآيات التي بعدها إلى قوله ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾، حتى يعترض حديث الملائكة السياق بالفصل بين من سبق من كافرين ومؤمنين ومن سيأتي الحديث عنهم من صنوف الكـــافرين ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا .....﴿٦٤﴾ ﴾، وقد أشرنا فيما سبق إلى طبيعة هذا الاستطراد الذي يعترض السياق ليقرر حقيقة متصلة بما يقوم به الملائكة من عمل ، وكأنه إشارة إلى ما ورد في صدر السورة مع كل من زكريا ومريم في أمر البشارة بيحيى وعيسى، وقلنا إنها من قبيل الخطابات التي تستحق وقفات عندها ونظائرها، لا يتسع المجال هنا لتفصيلها، وعلى العموم يجيء هذا الخطاب ليقرر أن الملائكة، أو الأنبياء أو المؤمنين، في أقوال، يقررون أنهم لا يصدرون فيما يأتون إلا عن أمر سابق من الله الذي له كل شيء ويعلم كل شيء والذي له الخلق والأمر، وهو المستحق للعبادة دون أي شيء في الوجود كما أمر، ولهذا النمط من الاستطراد وظيفة جليلة في القرآن الكريم، مؤداها أنه ما دام القرآن كلام الله وهو يقص علينا أخبار الأمم والنبوات فله أن يسترد مقادة الخطاب الذي أسنده لطرف متكلم في خبر أو قصة في مواقف معينة ليسوق أمرا له مغزاه في هذا السياق أو يعلق عليه ، وقد ألمحنا إلى علة الاستطراد هنا ومعناه فيما سبق ، ولهذا الأمر أيضا حديث يطول لا يتسع له المقام هنا.

وهذا المقطع أحد ستة مقاطع هي مكونات القسم الثاني من السورة، وكلها يحمل تركيبة عجيبة الشأن، فكل منها بما فيها المتقدم:

- **يتحدث عن طائفة أو صنف من صنوف المكذبين.**
- **هذه الطائفة منكرة لدعوة نبي أو أكثر ممن تقدم ذكرهم.**
- **يبين نوع المخالفة التي اقترفوها.**
- **ويبين نوع العقوبة التي استحقوها.**

- يستثني من العقوبة من لم يسايرهم أو من أخطأ ثم تاب.

- ويبين الجزاء الحسن الذي استحقه بطاعته وتوبته.

وبهذا نجد أن كل نموذج من هذه النماذج مقابل لموضوع مما ورد في القسم الأول فيما يشبه اللف والنشر في البديع ، غير أنه اتسع ليعم أطراف موضوعات وأفكار بدلا من ألفاظ وصفات ، وقد نهضت الدوالّ بدورها في بيان الصلات بين كل قسيم وقسيمه ، على النحو الذي تبين في العرض المتقدم.

- فالمقطع الخاص بعموم الخَلْف العصاة مقابل لما ورد في دعوة الأنبياء لأداء العبادات والطاعات (زكريا وعيسى وإسماعيل).

- والمقطع الخاص بإنكار البعث ، جاء مقابلا لما ورد في صفة يحيى وكلام عيسى.

- ومقطع التكذيب بآيات الله مقابل لوصف حال الأنبياء والمؤمنين إذ تتلى عليهم آيات الله، وعلامة تصديقهم.

- والمقطع الخاص بالمتألي على الله مقابل لضراعة زكريا في صدر السورة.

- والمقطع الخاص بالمشركين من عبدة الأوثان ومن إليهم مقابل بمحاورة إبراهيم وأبيه.

- والمقطع الأخير في مقابل عبادة عيسى إشراكا بالله، وادعاء بنوَّتِه له افتراءً، بدل نبوته.

وقد تقدم الحديث عن أولها في مطلع القسم الثاني من السورة قبل الاستطراد السابق ، وينطبق على ما يليه كل ذلك ، وقد تنوعت وسائل الربط بين مطالع هذه المقاطع فيما بينها ، ومع ما تقدمها ؛ فمنها ما بدأ بالفاء وهو الذي سبق، ومنها ما بدأ بالعطف بالواو على السوابق التي

تعرضنا لها في الدوالِّ، ومنها واحد تصدرته همزة الاستفهام في خطاب موجه للرسول ﷺ.

فأما منكر البعث فسوف يراه عين اليقين، ولكن بعد فوات أوان التوبة والرجوع إلى الحق والصواب، فيعنفه الله تعالى على ما هو عليه من ضحالة الفكر وموت القلب، ولو أنه كان ذا لبٍّ لأدرك أن من خلقه قادر على إعادته؛ بل ذلك أهون عليه من الخلق الأول، ولأن الشيطان هو الذي دعاه إلى التكذيب يقسم الله تعالى بأنه سوف يُحشر ومعه شيطانه للحساب ثم العقاب يوم يُجمع الخلق في مشهد رهيب ويُحضَرون حول جهنم، ثم يُصرف المؤمنون إلى الجنة ويُلقى هذا وشيطانه في قعر جهنم مذموما مدحورا، ويلحظ أن هذا المقطع قد استُهِل بالمضارع بعد الواو (ويقول) وهو إشارة إلى معنى الاستمرار الأبدي في حياة البشر الذين قالوا ما قالوا في أمر البعث والحساب، ولم يزالوا وسيظلون يقولون إلا من هدى الله ، وهذه الإشارة من أسوأ ما ابتليت به البشرية من كيد الشياطين الذين يوسوسون إليهم بإنكار البعث مما يجعلهم يقدمون على كل المعاصي ومتع الدنيا غير عابئين بالحساب، فلا حساب في ظنهم ولا عقاب!.

والصنف الثالث من يكذبون بآيات الله التي تتلى عليهم من قِبَل النبيين والدعاة والمصلحين، وهي بيِّنات شديدة الوضوح ومعها أدلتها التي لا يجحدها عقل ولا يعارضها منطق ، وقد وضعهم السياق بإزاء فريق المؤمنين الذين يقودهم الأنبياء الذين خُتم بهم القسم الأول من السورة ليتبين الفرق بين من يسمع آيات الله فلا يملك نفسه من شدة التصديق بها والإيمان أن يخر ساجدا لله شكرا على أن هداه، وهذا الذي يستكبر عن العبادة والطاعة؛ فاستحق العذاب في الدنيا والآخرة، ولا ينهي المقطع إلا بعد أن يمنح المهتدين أجرهم.

ولأن الفريق الآتي امتداد للسابق المكذب بآيات الله وينسب القدرة إلى نفسه بدأ مقطعه بالاستفهام التعجيبي "أفرأيت" الموجه للرسول ﷺ، في وصف النموذج القائل تألّيا على الله ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ فقد كال له من التقريع والوعيد بسوء المصير ما وصفناه آنفا، ويلي هذا فريق المشركين الذين اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله، وهم أيضا لم ينجوا من كيد الشياطين ولهم نصيبهم الوافر من العذاب المدخر بما يكافئ ما يحصيه عليهم من الذنوب ويكون حسابهم في ذات الوقت والموقف الذي ينتهي بالفراق الأبدي بينهم وبين المتقين الذين يأخذون طريقهم إلى الجنة، وهؤلاء إلى جهنم.

وأخيرا يأتي الفريق المفتري على الله أن له ابنا، والذي سبق ذكر طرف ممن اعتنقوا مثله في القسم الأول من السورة؛ فريق القائلين بأن الله اتخذ عيسى ولدا، أو من اليهود القائلين بعزير، أو القائلين بأن الملائكة بنات الله!، فإذا بالسياق ينهال عليهم بما يبين لهم هول ما ادعوه من الافتراء على الله بصورة مفزعة بلغ من هول وقعها أنْ تكاد السماوات يتشققن ويسقطن منها وتنشق الأرض وتنهار الجبال، وهي وسائل تعبيرية تقشعر منها الأبدان، ساقها القرآن لتبشيع ما قالوه من الفرية والكذب، وما قدروا الله حق قدره، لأن الله تعالى لا يجوز في حقه اتخاذ النساء والولدان، وكل ما في الكون يعبده وسوف يأتي إليه طوعا بلا سند من مال أو ولد وغيره.

ولا ينقضي الموقف الرهيب إلا بعد أن يُطمئن الله تعالى أهل التقوى والرضوان في لفتة رحمانية حانية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ فيالها من لفتة رائعة في موقف رهيب أن يجعل لهم الرحمن "ودّاً"، فبقدر ما يتنعم به هؤلاء من

الأمن والسكينة من أثر هذا الود يصيب الكافرين قدر مساو من الندم والأسف والأسى وتمني الرجعة والتوبة، ولكن هيهات، فالأوان قد فات.

وبعد ذلك تختم السورة بخطاب مخصوص موجه للنبي ﷺ مشيرا إلى الكتاب – أي القرآن – الذي ورد ذكره في صدر المقاطع المتقدمة في النصف الأول في أمر الله لنبيه ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ..... ﴾ فيقول له ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ – أي القرآن – بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ فقد طالما أمره ربه المرة تلو الأخرى بذكر ما يلقى إليه "في الكتاب" الذي أنزل إليه ليبلغه للناس وأمره فضلا عن ذلك بإنذارهم، وما كان أشدَّ نزول الوحي عليه، وأشقُّ منه تبليغه والمعاناة في ذلك؛ فكان هذا الختام بردا وسلاما على قلبه وطمأنة وتهوينا وتيسيرا للمهام الجسام إذ يتتبع الأوامر المتكررة التي يخاف كل أحد أن يفوته منها ما يوجب المساءلة والاتهام بالتقصير ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ القيامة ،كما أن الضمير العائد على الكتاب هنا قد أحكم اتصال السورة من طرفيها ووسطها بعضها ببعض، وهذا إيجاز بليغ للسورة كلها فهو يقول له ما معناه إن ما أمرناك بذكره في الكتاب إنما أجريناه على لسانك ليكون:

أولا: بشرى للمؤمنين الذين يتبعون كل ما جاء به وعبر عنه مقام النبوة من لدن آدم، وكشفاً لهم عما يلقونه من حسن الجزاء.

ثانيا: نذيراً للمكذبين بجميع صنوفهم ، وصنوف الأكاذيب التي افتروها على الله ورسالاته ورسله.

وكما نرى، لخصت هاتان الآيتان كل ما ورد في السورة بقسميها، وبينتا للرسول ﷺ والمدعوين من بعده جلية ما أُمِر بذكره وتبليغه للناس قاطبة لعلهم يتقون، وما كان أحكم الآية الأخيرة التي أضافت للقوم اللُّدِّ فائدة يمكن وصفها بالنصيحة أو التحذير أو التعريض والتلويح بسوء العاقبة، موجهة الخطاب للنبيﷺ لتزوده بجرعة طمأنة إلى أن الله سيتم أمره ، ويهلك عدوه فلا يحزن.

فانظر كيف تعمل الدوال الرابطة على تآزر عناصر بناء الصورة في السورة من القرآن !

* * *

وبعد:

فما أكثر ما سمعنا من شكاوى الحفاظ والمتعلمين من المتشابهات، وما تسببه لهم من التباس بينها في كثير من المواضع في القرآن الكريم، واجتهد الكثيرون على مر العصور في محاولة حل هذه المعضلة لييسروا للحفاظ والمقبلين على الحفظ أمرها بوسائل عديدة ، وعلى الرغم من تلك الصعوبات نجد لهذه المتشابهات ما لا يحصى من الفوائد الجليلة في تحقيق مقاصد التنزيل، ومنها ما نحن فيه، وأعني هنا ما في السورة الواحدة، أو فيها والتي قبلها أو التي بعدها.

و قد رأينا بعض المرجفين ينالون من قدر القرآن بإثارة مثل هذه الأمور للتلبيس على العامة، ووصل الأمر ببعضهم من الجرأة والاستخفاف أن نعت ظاهرة التكرار في القرآن عامة، وفي قصصه خاصة "بأنه يصل بالقارئ إلى درجة الإملال"، ولعل هذا الذي بين أيدينا كاف في الرد عليه ، ويكفينا مؤنة التدني للرد عليه أو توجيهه للنظر فيما في طواياه واستخراج ما فيها من الدنايا ، وتقديم الاعتذار والأسف عما فيها مما يعلمه، أما أن يعتذر لنا فلسنا في حاجة لذلك ، فلا انتقاصه لنا يقلل منا في شيء، ولا اعتذاره يزيدنا شيئا.

إن مسألة الدوال لا تنقضي ولا تتوقف عند هذا الذي عرضنا في هذه الصفحات؛ لأن لها امتدادات تتصل بظواهر قرآنية أخرى ولا تنفك عنها ولا تتم أيٌّ منها إلا بأختها، وقد مر بنا في ثنايا هذا العرض إشارات إلى تلك الظواهر، فمنها مقامات الخطاب، ومنها منزلة التكرار من الدوال ووجوه الاتصال بينهما والانفصال، ومنها غرائب الدوال ولطائفها، ومنها تلاحم الأطراف، ومنها البنية التقابلية ومنها ظاهرة استرداد مقادة الخطاب لتحقيق مقاصد التنزيل وغيرها.

ولأن المقام هنا له من الخصوصية والمقتضيات ما لا يسمح بالتوسع في الحديث عن كل هذه الظواهر، ولا يسمح أيضا بتركها جملة؛ فلا بأس بإلقاء نظرة عجلى على ما يتيسر منها لما له من أثر في إحكام بناء السورة.

من المعلوم أن أي موضوع مطروح للحديث فيه له ثلاثة أطراف هي المتكلم والمخاطب والكلام، والقرآن لا يخرج عن هذا الأصل، ومعلوم من الدين بالضرورة أنه كلام الله، ونحن نعلمه يقينا، وقد تبين بالحصر الدقيق أن الرسول ﷺ هو المخاطب الرئيس بالقرآن، ومع المخاطب الرئيس ترد عناصر أخرى من المخاطبين، منها ما يوصف بالخطاب العام مثل أيها الناس، أيها الذين آمنوا، يا بني آدم، يا بني إسرائيل، يا أيها الكافرون، ومنها الخطاب الخاص، مثل يا موسى ، يا إبراهيم، أو لغير محدد مثل "آلآن وقد عصيت قبل ...." ، وكل هذا من الوضوح بمكان فيما يتصل بالمخاطب، غير أن هناك أمورا تتعلق بطريقة إلقاء الوحي إلى النبي والتي ظهرت هنا في تعبيرات عدة أولها "اذكر في الكتاب" يليها "أنذرهم"، ومنها "أفرأيت" و"ألم تر" "قل" وفي غيرها "اتل"، "بلِّغ" "نبِّئ" والنداءات وغيرها ، غير أن هذه الصيغة "**اذكر**" التي انفردت بها سورة مريم تعد من الفرائد العجيبة في دلالتها على أكثر من احتمال لطريقة تبليغ القرآن للنبي، فكل الصيغ التي استعملها القرآن تشير إلى النقل اللساني بكل طرقه إلا هذه، وللمرة الأولى والأخيرة التي تأمره بالذكر "في الكتاب"، وهي مسألة محيرة لم نهتد فيها إلى قول قاطع، ولا نجترئ على قول يفضي بنا إلى حرج، كما وقع للكاتب السوري محمد شحرور الذي أخرج كتابا ضخما **بعنوان: الكتاب والقرآن**، رَكِب فيه مركَبا صعبا وخاض في نقاشات عدة أدت به في النهاية إلى القول بأن القرآن غير الكتاب، وجعل لبعض المصطلحات مدلولات غير

المعروفة عنها وخص بها قسما من القرآن كالمحكم والمتشابه، والسبع المثاني، وأم الكتاب ، والذكر، ووصل به الأمر إلى تقرير أنه [إذا سأل سائل: هل آية الإرث من القرآن؟ فالجواب: لا، هي ليست من القرآن ولكنها من أم الكتاب"الرسالة" وهي من أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود فهل هذا يعني أنها ليست من عند الله؟ ! لقد جاء الجواب ....بقوله ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ .....﴿٧﴾ ﴾ آل عمران (الكتاب والقرآن ٣٧-٣٨)] ، وهو كتاب عويص محير يقبل منه ويرد عليه ؛ حتى جعلنى أقول في غمرة الحيرة: أيكون هذا هو ما أخبر القرآن عنه في سالف العصر والأوان ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ الحجر، أهذا الذي جعل القرآن عضين لا من أشار إليه المتقدمون؟!، وكأن هذه الآية من الآيات المنتظرة التي ادخرها القرآن للأمم الآتية بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!.

والذي بين أيدينا في هذه الدالة "**اذكر**" هو من المحرجات التي يجب التوقف عندها كثيرا قبل تقرير أمر لم يحسب حسابه بدقة في أمر يعسر الخروج منه، وهو كما ذكرت مما يتصل بالمتكلم في أسلوب تأدية الوحي إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم–، ويحوج إلى مزيد تأمل وتدبر وتبصر.

ومما سبق سرده من أنماط الخطاب نمطان في سورة مريم، أشرنا إلى أولهما وهو حديث الملائكة الذي جاء دون تصريح بإسناد الخطاب إليهم، ولكن السياق دل عليه، وكثيرا ما يحكي القرآن مقالات لشخصيات، ولكن السياق يقدم لها بما يعلمنا أن فلانا هو المتكلم، ومنها ما ندركه من محتوى المقولة ذاتها، وكلام الملائكة السالف من هذا القبيل.

والنمط الآخر له حضور ممتد في القرآن بكثرة مثيرة للفضول، ونراها فيما يسوق النص من كلام من شأنه أن يكون قائله هو الله، ولكن السياق

يبرز الله تعالى في صورة الغيبة سواء بذكره بالاسم الظاهر أو بالضمير أو أي دالّ غيرهما، وقد أراح العلماء أنفسهم وحسبوا أنهم أراحونا بصرف ذلك إلى "الالتفات" في جل المواضع وعللوا ذلك بعلل متعددة ندعها لمجالها ، ومثال هذا النمط في سورة مريم في صدرها ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾ فهنا جعل السياقُ اللهَ غائبا بالوصف الظاهر "رب" والضمير في "عبده"، والرسول هو المخاطب، والأصل أن الكلام لله، فعلى هذا يكون متكلما وغائبا في آن؟، ويقول ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ وما بعدها من الآيات، فالله هنا مذكور بالاسم الظاهر، دلالة الغيبة ثم بالتكلم "وهبنا"، "جعلنا"، وهذا موجِب للسؤال السابق أيضا، ويقول ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ وفيه الاسم الظاهر، ومعه "حملنا"، "هدينا"، "اجتبينا" للتكلم مثل سابقيه، ويقول ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ ، ويقول ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ هنا المتكلم هو الله في أصل الكلام، ومع ذلك ورد في السياق بالاسم الظاهر دلالة الغيبة "ربك"، والخطاب موزع بين الرسول بضميره في اللفظ السابق والخلق المحشورين إلى جهنم "منكم"! وكذلك في قوله ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ الذي ورد بعد قول مسند إلى الرسول أمر تبليغه، وهذا ليس منه، لأنه لا يصح أن يكون الرسول متكلما ومخاطبا

في آن، ويكون التوجه إلى أنه من كلام الله، ولكن الله ورد ذكره بالاسم الظاهر "الله" في أوله، وفي"ربك"، فهو كالسابق، ثم قوله ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ ﴾ ورد فيه الاسم الظاهر في سياق مسند كله إلى الله تعالى متكلما، وبعده في السياق نفسه ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ ﴾ وفيه الحاشر بحسب السياق هو الله تعالى "نحشر"، والمتقون يحشرون إليه بصيغة الغائب من خلال الاسم الظاهر "الرحمن" في هذه المرة ، فهذا مثل ما سبقه!.

وبصرف النظر عن أن بعض ما سبق قابل لتطبيق الالتفات عليه، تبقى بقية ليست بالقليلة لا تقبله إلا بتعمل والتواء، أو لا تقبله، أو أن يعد الأسلوب **محكيا** ، وعندها لا مفر من البحث عن العنصر الذي يتدخل في السياق فيتحدث بأوامر الله ويعبر عن مراده، بل ينهض ببعض العمل الذي ينسب في الأصل إلى الله بإذن منه، وبقليل من المراجعة لأساليب القرآن عامة، ولسياق هذه السورة على وجه الخصوص نجد أن هذا العنصر موجود بقوة، وله دور بارز لا يخفى، وهو فيما يُتوقّع حامل الوحي أو الملك أو الملك الرسول أو الملائكة أو جبريل أو الروح بحسب ما ورد في القرآن من مسميات له وأوصاف، وعما قليل قد يكتسب لقبا جديدا قديما في آن هو "**المُبَلِّغ**"، وهذا هو العنصر الذي يسخره الله تعالى لإنفاذ مراده وكلامه وأوامره في كثير من الأعمال التي جاء ذكرها في القرآن مما لا يتسع المقام للإفاضة في ذكرها، ولها مكانها مؤجلا إلى حين إن شاء الله تعالى وقدر، والذي وجد من هذا الدور المؤثر للمُبَلِّغ في سورة مريم ليس بالقليل، برز أولا مع زكريا، ثم مع مريم، وفيما بعد أيضا، ولو طابقنا ما ورد هنا مع ما ورد في آل عمران لثبت ما ندعيه من إسناد دور **للمبلغ**، وهنا يزداد ثبوتا في

مواضـع ينـاجي فيهـا زكريـا ربـه ، ومـريم كـذلك ويجـيء الـرد مـن الملـك ، وصدق الله العظيم ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ الشـــورى ، و عليه فكثير من خطابات القرآن من أوامر ونداءات مباشرة أو غير مباشرة مرت عبر إحدى هذه الوسائط، وقد مرت بنا في سورة مريم الآية على لسان الملائكـة، وقالوهـا دون سـابق تكليـف بـالقول أو التبليـغ، هـي قولـه ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ ولهـا هنـا دلالتـان، أن مضـمونها يعـد تطبيقـا لمضـمون آيـة الشـورى، وأنهـم قـالوا ذلـك دون أن تسـبق فـي السـياق إشـارة إلـى أنهـم هـم قائلوها، بل دل على ذلك مضمون العبارة ذاته، وعليه أيضا يمكن اعتبار كل ما في السورة من عبارات ذكر الله تعالى فيها بالغيبة نظيرا لما في هذه الآيـة؛ أي من قول الملائكة أو حامل الوحي تبليغا عن رب العزة أو إنفاذا لأوامره، مـا لـم يكـن فـي السياق مـا يعترض هذا التوجيـه، وفـي ضـوء ذلـك يمكـن إعـادة قراءة السـورة قراءة جديـدة تحـال فيهـا هذه العبـارات إلـى أقـوال منسوبة للملائكة بتكليف من ربهم ، ولا يلتفت إلى القول بالالتفات.

تبـدأ السـورة بقـرع جـرس تنبيـه للنبـي بـأن يسـتمع لمـا يـأتي مـن وحـي السماء، ثم يقال لـه: هذا أمر لك من ربك بذكر ضراعة زكريا لربـه أن يهبـه ولدا لما حل بـه من الضـعف وخوف ضياع الدين من بعده، وما كـان من إجابة ربه الذي كلفنا بتبشيره بيحيى "نبشرك بغلام .... لم **نجعل** له من قبل سميا" (ولأن هـذا الضـمير يرجـع الكـلام إلـى الله ؛ يمكـن القـول بأنـه علـى الحكايـة) ، فلمـا تعجب من ذلك ، قال الملك "كذلك قال ربك ...." فيعـاود زكريـا التوجـه إلـى الله بطلـب علامـة تدلـه علـى تحقـق البشـارة، فدلـه الملـك

عليها وتمضي القصة إلى غايتها، ثم يعود الملك لينقل أمر السماء للرسول بذكر قصة مريم فيما ينقله من كتاب الله للمدعوين، ولأن ما يأتي من الخبر سيدون في الكتاب بأمر الله كان على الملك أن يؤديه كما جاء بلسان التكلم منسوبا إلى الله تعالى، ولأن ما سيقوم به الملك من دور هنا لا يتوقف عند حد تبليغ وحي ربه، بل إن له عملا سيقوم به، والله الذي قضاه هو من يبلغ به نبيه ؛ لذا قال "فأرسلنا إليها روحنا...." وحكى ما دار بينها وبين الملك من محاورة كان منها "إنما أنا رسول ربك ..." وقال " كذلك قال ربك ..."، وبعد انقضاء قصتها و قرب انقضاء قصة عيسى يعلق الملك (في استطراد سبقت إشارة إليه) "ذلك عيسى ابن مريم ...ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه" وتعليقه هذا ليس في زمن وقوع القصة بل في زمن ذكرها في الكتاب ، وبعد استكمال قول عيسى يعود السياق إلى صيغة التكلم من رب العزة "فاختلف الأحزاب ...أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا .... إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون" ويستأنف الأمر بالذكر ورواية قصة إبراهيم ، والكلام يبدو في أوله أنه من الله تعالى حتى يجيء قوله "....فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله **وهبنا** له إسحاق ..... وكلا جعلنا نبيا و**وهبنا** لهم من **رحمتنا** و**جعلنا** لهم ...." فظهرت مشكلة ازدواج الخطاب في ذكر لفظ الجلالة دليلا على الغيبة وأفعال القدرة الخاصة بالله تعالى والضمائر المثبتة المصاحبة لها، وهنا يحسن صرف السياق إلى الملك بالرغم من وجود أفعال القدرة الإلهية بدلا من القول بالالتفات؛ لأن الله تعالى يسند تنفيذها للملائكة في مواطن عدة في الكتاب الكريم ومنها في هذه السورة قول الملك لمريم "إنما أنا رسول ربك **لأهب** لك غلاما زكيا" فأسند الملك الفعل إلى نفسه، وهو لله في الحقيقة، وعليه لا يمتنع أن يكون اللفظ "وهبنا"نفسه الذي ورد مرتين فيما سبق من قصة إبراهيم مسندا بضمائره إلى

الملائكة، ومثل ذلك يقال فيما بعده من أخبار النبوة التي يتم التعقيب عليها بالآية المثبتة لعمل الملائكة بأمر ربهم "وما نتنزل إلا بأمر ربك...." ، وهى ليست مقحمة هنا ولا استطرادا بل هي في صلب الموضوع، جاءت جوابا لمن يتساءل عما تم من عملهم في أحداث السورة ، مثبتا طبيعة عملهم، وأنهم لا يقومون به من عند أنفسهم بل بتكليف من الله تعالى، ومثله ما تولوه من التبليغ في السورة، وفي القرآن كله، وعلى هذا يقاس ما بقي من السورة.

وكنت أود الحديث عن الجوانب الأخرى التي أشرت إليها في صدر هذا التعقيب لما لها من دور في تعزيز تصور إحكام بناء النص ، ولكن الوقت والمقام لا يتسعان لذلك، ولو كان ثمة فسحة من الوقت لأضفت نماذج أخرى أو خضت التجربة مع نموذج أكبر حجما منها ، فالظاهرة التي نعرضها هنا تكاد تستغرق القرآن كله فلا خوف من خوض التطبيق على أية سورة من هذا الجم الغفير من السور، ومن شاء فليفعل خدمة لكتابه الكريم.

ونسأل الله المعونة على إنجاز ما بقي من محاور، وما أكثرها، وصلى الله على سيدنا محمد وآله والنبيين أجمعين وسلم تسليما كثيرا ، والحمد لله رب العالمين، آمين.

١٤٤٣/٢/٢٥ كاظم الظواهري

٢٠٢١/١٠/٢

المصادر والمراجع:

كتب التفسير وعلوم القرآن، وكتب الحديث الشريف، والتاريخ، والسير.

* * *

فهرس المحتويات

مكونات الورقة	الصفحة
ملخص البحث (عربي، انجليزي) :.....	٧٩-٨٠
قبل البدء :.....	٨١
الدوال الرابطة في القرآن الكريم :.....	٨٤
جدول فرائد الدوال من الألفاظ والتراكيب :.....	٩١
نماذج مختارة من فرائد الدوال :.....	٩٨
سورة مريم: دوالُّها وفرائدها :.....	١١١
بناء السورة :.....	١٤٦
روابط القسم الأول :.....	١٤٩
روابط القسم الثاني :.....	١٥٣
تعقيب :.....	١٦٠
فهرس الموضوعات :.....	١٦٨